صفحات مضيئة

من حياة العلامة

محمد بن علي بن آدم الأثيوبي رحمه الله

دروس ومواقف

بقلم

أبرار الحق مولوي

المدرس بدار الحديث الخيرية بمكة المكرمة

تقديم

معالي الشيخ صالح بن عبد الله بن حميد

إمام وخطيب المسجد الحرام وعضو هيئة كبار العلماء

دار ابن الجوزي

صفحات مضيئة

من حياة العلامة

محمد بن علي بن آدم الأثيوبي

ح دار ابن الجوزي للنشر والتوزيع، ١٤٤٣هـ
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
مولوي، أبرار الحق
صفحات مضيئة من حياة العلامة محمد علي آدم الإتيوبي رَحِمَهُ اللَّهُ./ أبرار الحق مولوي.- الدمام، ١٤٤٣هـ
١٢٨ص؛ ١٧×٢٤سم
ردمك: ١ - ٤٢ - ٨٣٣٨ - ٦٠٣ - ٩٧٨
١ - الإسلام - تراجم أ. العنوان
ديوي ٩٢٢,١ ١٤٤٣/٣٢٧١

حقوق الطبع محفوظة
الطبعة الأولى
١٤٤٣هـ

الباركود الدولي: 9786038338421

حقوق الطبع محفوظة © ١٤٤٣هـ، لا يسمح بإعادة نشر هذا الكتاب أو أي جزء منه بأي شكل من الأشكال أو حفظه ونسخه في أي نظام ميكانيكي أو إلكتروني يمكن من استرجاع الكتاب أو ترجمته إلى أي لغة أخرى دون الحصول على إذن خطي مسبق من الناشر.

دار ابن الجوزي
للنشر والتوزيع

المملكة العربية السعودية:
الدمام - حي الريان - شارع عثمان بن عفان
ت: ٠١٣٨٤٢٨١٤٦ - ٠١٣٨٤٦٧٥٩٣
٠١٣٨٤١٢١٠٠
ص ب. واصل: ٨١١٤
الرمز البريدي: ٣٢٢٥٦
الرقم الإضافي: ٤٩٧٣
الرياض - ت: ٠٥٩٢٦٦٢٤٩٥
جوّال: ٠٥٠٣٨٥٧٩٨٨
الأحساء - ت: ٠١٣٥٨٨٣١٢٢
جدة - ت: ٠١٢٦٨١٤٥١٩
جوّال: ٠٥٨٣٠١٧٩٥١

لبنان:
بيروت - ت: ٠٣/٨٦٩٦٠٠
فاكس: ٠١/٦٤١٨٠١

مصر:
القاهرة - تلفاكس: ٠٢٤٤٣٤٤٩٧٠
جوّال: ٠١٠٠٦٨٢٣٧٣٨٨

aljawzi@hotmail.com
+966503897671
aljawzi
eljawzi
aljawzi.net

صفحات مضيئة

من حياة العلامة

محمد بن علي بن آدم الأثيوبي رحمه الله

دروس ومواقف

بقلم

أبرار الحق مولوي

المدرّس بدار الحديث الخيرية بمكة المكرمة

تقديم

معالي الشيخ صالح بن عبد الله بن حميد

إمام وخطيب المسجد الحرام وعضو هيئة كبار العلماء

دار ابن الجوزي

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قال اللّه تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر: ٢٨].

* * *

وقال رسول اللّه ﷺ: (من سلك طريقًا يطلب فيه علمًا سلك اللّه به طريقًا من طرق الجنة، والملائكة تضع أجنحتها رضًا لطالب العلم، وإن العالم يستغفر له من في السموات ومن في الأرض، والحيتان في الماء، وفضل العالِم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب، إن العلماء ورثة الأنبياء، إن الأنبياء لم يورثوا دينارًا ولا درهمًا وأورثوا العلم، فمن أخذه أخذ بحظ وافر)[1].

(١) أخرجه أبو داود والترمذي وابن ماجه وغيرهم، وحسّنه الحافظ ابن حجر، وصحّحه الألباني.

تقديم
معالي الشيخ صالح بن عبد الله بن حميد
إمام وخطيب المسجد الحرام، وعضو هيئة كبار العلماء

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده، **وبعد**:

من مسالك العلماء في فن التراجم والسير العناية بالتراجم التي يكون المترجِم عاصر واقع المترجَم له وحياته، وأحكم تلك المسائل أن يترجم التلميذ لأشياخه، وهذا النوع يعتبر من المكاسب العلمية التي تسعد بها نفوس المهتمين والمتخصصين؛ لما تتسم به تلك التراجم من جودة التوثيق، وثبوت الموثوقية في ذكر الأقوال وسرد الأحداث، وتمحيص الاختيارات العلمية.

وهذا بلا شك يدعو الهمم لتلقي تلك التراجم؛ فهي مكسب علمي يتجلى من خلاله جملة من الفوائد والمصالح العلمية، **منها**:

* **الفائدة الأولى**: تحقق الاتصال الإسنادي بين التلميذ وشيخه في الروايات والأحداث التي عني الشيخ بروايتها أو التي عاصرها، وبهذا يتبدد كثير من الأكاذيب والحكايات الموضوعة أو المزيدة على الشيخ.

* **الفائدة الثانية**: وضوح منهج الشيخ في القضايا العلمية، وبيان آرائه في كثير من المسائل العلمية التي لم تتضح للمتابع لأقوال الشيخ وتقريراته العلمية.

* **الفائدة الثالثة**: إبراز الجوانب القيمية والآداب المرعية في مقولات الشيخ ومواقفه في الأحداث وتعليقه على مجريات العصر ومتغيراته.

* **الفائدة الرابعة**: كشف علاقه الشيخ بعلماء عصره ومع أشياخه، وطرائق تحصيله، وطلبه للعلم.

* **الفائدة الخامسة**: بيان جملة من مقاصد الشيخ في أقواله واختياراته، ودواعي تأليفاته العلمية.

* **الفائدة السادسة**: رسم نموذج متكامل لشخصية الشيخ، وتراتيب أولوياته في بنائه العلمي، ومعالجاته لقضايا الواقع.

* **الفائدة السابعة**: إظهار جوانب الحكم والتوازن في عقلية الشيخ من خلال التوجيه والإرشاد لطلابه، ومن عاصرهم من الخاصة والعامة.

وهذه الطريقة في كتابة التراجم يتواصى بها المهتمون وطلاب العلم.

ومن تلك الكتابات ما كتبه فضيلة الشيخ أبرار الحق مولوي ـ وفقه الله ـ، في ترجمة شيخه الشيخ الإمام العالم الأصولي المحدث النحوي الشيخ محمد بن علي بن آدم بن موسى الإتيوبي رَحِمَهُ اللَّهُ ـ وهو من علماء مكة المكرمة ـ حرسها الله ـ ومن النوادر في الجلد والعمق في طلب العلم وتحصيله، وبذله مكتوبًا وملفوظًا، وقد عرف بموسوعيته العلمية في علوم الغاية والآلة.

وقد عرفتُ الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ في علمه، وفضله، وحسن تدينه، وورعه، ودأبه في بذل العلم تدريسًا وتأليفًا ومطالعة.

أحسن الله إليه وأجزل مثوبته، وجعل ذلك كله في ميزان حسناته، وأصلح عقبه وذريته، وجعل فيهم من يخلفه في علمه وفضله، إنه سميع مجيب.

وقد أحسن الشيخ الفاضل أبرار مولوي، في هذه الترجمة والتي عنوَن لها: **(صفحات مضيئة من حياة العلامة محمد بن علي بن آدم الإتيوبي** رَحِمَهُ اللَّهُ **دروس ومواقف)**.

فشكر الله للشيخ أبرار الحق مولوي، على هذا الوفاء ورد الجميل لشيخه محمد علي آدم رَحِمَهُ اللَّهُ.

سائلًا المولى العلي القدير أن يبارك في هذا الجهد، وينفع به طلاب العلم ومحبي الشيخ، وأن يكتب أجر العلامة محمد علي آدم على ما بذل من العلم ونشره وبيانه.

وصلّى الله وسلّم على نبيِّنا محمد، وعلى آله وصحبه وسلم.

كتبه

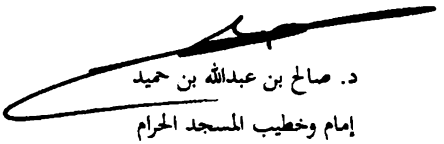

د. صالح بن عبدالله بن حميد

إمام وخطيب المسجد الحرام

عضو هيئة كبار العلماء

المدينة

١٩/٨/١٤٤٤هـ

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، نبينا ومبيبنا محمد عليه وعلى آله وصحبه أفضل الصلاة وأتم التسليم، أما بعد:

فنحيط أبناء الشيخ محمد بن علي آدم - رحمه الله تعالى - نفيد في هذه الأسطر بأننا اطلعنا على ما كتبه الشيخ / أبو الحسن هولوي - المدرس ببدر الدين الخيرية - عن ترجمة وسيرة الوالد في كتابه المسمى بـ (صفحات مضيئة من حياة العلامة محمد بن علي بن آدم الإتيوبي - رحمه الله تعالى - دروس ومواقف) وهو في انتظار معنا منذ شهور حتى انتهى منه، وقد لمسنا فيه حرصه على مراعاة الدقة والتثبت قبل وضع المعلومات في الكتاب على طريقة المحدثين في كثير مما ذكره عن غيره من المواقف، وليس ذلك بغريب عليه فهو من جانب كونه تلميذ أخيه من عام ١٤٠٩هـ زاملته في التدريس قرابة عشرين سنة ببدر الخيرية، وقد حظي بزكاة الوالد - رحمه الله - وإجازته غير مرة بجميع مروياته ومؤلفاته ولم يهمنا الأمر نفيد في هذه الأسطر بأنه لا مانع لدينا من طباعة كتابه المذكور، سائلين الله تعالى أن ينفع به وبكتابه، كما نسأله أن يرحم الوالد ويجزيه عما قدم للإسلام والمسلمين خيرا.

* أبناء الشيخ / محمد بن علي آدم - رحمه الله:

- عبد الجليل محمد علي آدم ١٤٤٤/١٠/١٠
- إبراهيم محمد علي آدم ١٤٤٤/١٠/١٠
- علي محمد علي آدم ١٤٤٤/١٠/١٠

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء وسيد المرسلين، نبيّنا وحبيبنا محمد عليه وعلى آله وصحبه أفضل الصلاة وأتم التسليم...

أما بعد:

فنحن أبناء الشيخ محمد بن علي آدم ـ رحمه الله تعالى ـ نفيد في هذه الأسطر بأننا اطَّلعنا على ما كتبه الشيخ أبرار الحق مولوي ـ المدرس بدار الحديث الخيرية ـ عن ترجمة وسيرة الوالد في كتابه المسمى بـ **(صفحات مضيئة من حياة العلامة محمد بن علي بن الأتيوبي ـ رحمه الله تعالى ـ: دروس ومواقف)**، وهو في اتصال معنا منذ شروعه في الكتاب إلى أن انتهى منه، وقد لمسنا في منهجه مراعاة الدقة والتثبت قبل وضع المعلومات في الكتاب على طريقة المحدثين في كثير مما ذكر عن غيره من المواقف، وليس ذلك بغريب عليه فهو بجانب كونه تلميذًا عنده من عام ١٤٠٩هـ زامله في التدريس قرابة عشرين سنة بدار الحديث الخيرية، وقد زكَّاه الوالد رَحِمَهُ اللَّهُ وأجازه غير مرة بجميع مروياته ومؤلفاته.

ولمن يهمه الأمر نفيد في هذه الأسطر بأنه لا مانع لدينا من طباعة كتابه المذكور، سائلين الله تعالى أن ينفع به وبكتابه، كما نسأله أن يرحم الوالد ويجزيه عما قدم للإسلام والمسلمين خيرًا.

أبناء الشيخ محمد بن علي آدم
(عبد الجليل وإبراهيم وعلي)

المقدمة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله ربِّ العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء وسيد المرسلين، نبيِّنا وحبيبنا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

الحمد للّه الذي قد رفعا ... منزلة العالم فوق الرُّفَعا
قد قرن اللّه له الشهادة ... في الرتبة العليا من العبادة
ثم الصلاة والسلام دائمًا ... على النَّبي المرتقي مكارما
والآل والصحب وكل من تبع ... سنته الغرا وليس يبتدع[1]

* **أما بعد**، فهذه صفحات ضمّنتها ما علق بالذاكرة ورسخ في الأذهان عن الشيخ العلامة محمد ابن الشيخ علي بن آدم ـ رحمة الله عليهم ـ ومما تكررت مشاهدته ممن حوله من زملائه ومعارفه وملازميه من طلابه، مع ما ظفرنا به من أحوال وخصال حدثنا بها أهله والمقربون منه عزبت عن الكثيرين من أنشطته في بث العلم، وجهوده في تعليمه وتأليفه.

كما يجد القراء في سطور هذه الصفحات مواقفَ تربويةً ودروسًا في الهمة، وفوائدَ مهمة، ومساراتٍ مشرقةً في التربية والتعليم والصبر؛

(١) هذه الأبيات من منظومة الفقيد رَحِمَهُ اللَّهُ (منهج الطلاب لتحصيل الآراب)، وافتتح بها كتابه: الفوائد السمية في قواعد وضوابط علمية (ص٧ ـ ٨).

يُسَرّ بها المحب، وعلّ بعض من رغب في الالتحاق بركب ذوي الهمم يستنير بها متوكلًا على ربِّه، منتهجا هدي نبيِّه وحبيبه ﷺ، قاصدًا في مسيرته العلمية وجه الله تعالى، متزودًا بالصبر، متمثّلًا بمن قال:

لأستسهلن الصعب أو أدرك المنى فما انقادت الآمال إلا لصابر[1]

إن لكل عالمٍ سمتَه، ومنهجَه الفريد، وشمائلَه الرائعة؛ ولكنْ لهذا الشيخ المبارك انطباع خاص في المخيلة والواقع: وقارٌ يكسوه تواضع، واتزانٌ يخالطه انبساط وعفوية، ومُحيا تزينه أنوارُ الإيمان، ونفسٌ مطمئنة واثقة بمنهج أئمة الإسلام من السلف الصالح، وعِلمٌ عنوانه التحقيق والدليل، وآدابٌ سامية تحلى بها في تعامله مع الجميع.

نحن مع سيرة رجل من الرجال الذين أنجبتهم هذه الأمة، كان ـ رحمه الله تعالى ـ رأسًا في العلم، ورأسًا في الزهد والورع، ورأسًا في الصبر والهمة، ورأسًا في التوجيه والنصح، ورأسًا في العبادة والقراءة، كان سبّاقًا إلى الخيرات والصالحات، حريصًا على تطبيق السُّنَّة في شؤون حياته، ذابًّا عنها، وكتبه ودروسه متوافرة شاهدة على هذا.

سرت العبرات ونحن نسامر الذكريات والمواقف التي رسخت في أذهاننا مع هذا العلَم المبارك الفذ الفريد، الجامع بين العلم بالمنقول والمعقول مع العمل بما يوافق الدليل الصحيح في صغير الأمور وجليلها.

نحاول أن نسترجع بعض ما رأينا في حياته رَحِمَهُ اللَّهُ منذ ثلاثين سنة تقريبًا إلى قبيل وفاته بأسبوعين؛ من انشغاله الدائم بالعلم ومناقشة مسائله واستقبال طالبيه والتلذذ بقراءة ما حوته الكتب من الكنوز والدرر، والتأليف في فنون العلم المتعددة نثرًا وشعرًا، وكأن الشاعر عناه بقوله:

---

(١) هذا البيت من الشواهد التي استشهد بها كثير من النحاة في نواصب الفعل المضارع، ولم ينسبوها إلى قائل معين.

مـن حـاز الـعـلـم وذاكـره صـلـحـت دنـيـاه وآخـرتـهْ
فـأدمْ لـلـعـلـم مـذاكـرةً فـحـيـاة الـعـلـم مـذاكـرتـهْ[1]

وعلى هذه الحال يراه كل من كان في مقر عمله (دار الحديث الخيرية بمكة المكرمة) من المدرسين والطلاب وغيرهم؛ فلا يرونه إلا منشغلًا بالعلم قارئًا أو معلمًا أو مؤلفًا أو مجيبًا أو مصليًا أو ذاكرًا مسبحًا، والحمد لله الذي استعمله على هذه الطاعات منذ أن عرفناه في الدار، نحسبه كذلك والله حسبه وحسيبه، ولا نزكي على الله أحدًا، وما شهدنا إلا بما علمنا.

* وهذه جملة من التقييدات والذكريات والخواطر والوقائع التربوية المنتقاة من سيرة ومسيرة شيخنا ـ رفع الله درجته في عليين ـ والتي هي في أسلوبها ونسقها أشبه بأدب الرحلات، سطرتها تذكرة للنفس، وعرفانًا لمن لا نقدر أن نكافئ أفضاله علينا، وإفادةً لمن أحبَّ هذا العالم الجليل، أو رغب في معرفة جوانبَ مشرقةٍ من حياته العلمية والاجتماعية.

ولعل المناسب قبل ذكر هذه المواقف وتلكم الذكريات أن نستفتح هذه الصفحات ببطاقة المعلومات الشخصية الخاصة بشيخنا الفقيد رَحِمَهُ اللَّهُ، تليها ترجمته التي سطرها بقلمه (بتصرّف وتعليق على مواضع منها).

(١) هذان البيتان نسبهما التعالبي في منتخب الأسانيد (ص١٣٠)، وابن قاضي شهبة في تاريخه (١/ ٢٩٤) للإمام أبي الحجاج المزي رَحِمَهُ اللَّهُ.

بطاقة المعلومات الشخصية

ـ **محمد بن علي بن آدم بن موسى الإتيوبي**[١]، وهو في بلده يعرف بـ (محمد شيخ بُوْرَنَا، أو بُوْرَنِيّ بياء النسبة عربيًّا)[٢].

ـ **سنة الولادة**: ١٣٦٦هـ تقريبًا.

ـ **مكان الميلاد**: إتيوبيا.

ـ **الجنسية**: إتيوبي.

ـ **محلّ الإقامة**: مكة المكرمة (وقدومه إليها عام ١٤٠١هـ).

ـ **الحالة الاجتماعية**: متزوج، وله من الأولاد: أربعة بنين، وخمس بنات.

ـ **العمر**: ٧٦ عامًا تقريبًا.

ـ **الدراسة**: المدارس الريفية في إتيوبيا، ثم معهد الحرم المكي الشريف، ثم دار الحديث الخيرية.

ـ **مهنته**: التدريس والتأليف.

---

(١) الصواب حسب لغة أهل البلد بالتاء (إتيوبيا)، والمحفوظ عنه ـ رحمه الله تعالى ـ تنبيهه على هذا، وأن الصواب بالتاء لا بالثاء.

(٢) لا يطلق لقب (شيخ) على أحد إلا إذا كان عالمًا كبيرًا مشهورًا في البلد، ووالده كان كذلك، و(بُوْرَنَا) هي بلدة مشهورة من محافظة (وَلُّوَ) في إتيوبيا، وهكذا ضبط الشيخ، وعربيًّا تقال: (بُوْرَنِي) بياء النسبة، وهناك يعرف بـ (محمد شيخ بُوْرَنَا) ـ رحمة الله عليهما ـ، أفادني بهذا الشيخ حسين بن سعيد شفا، والشيخ سعيد محمد مامي ـ المدرسان بدار الحديث الخيرية ـ.

ـ **الجهة التعليمية التي عمل فيها**: دار الحديث الخيرية بمكة المكرمة.

ـ **أبرز شيوخه**: والده علي بن آدم، ومحمد قيو، ومحمد سعيد بن علي الدري، وعبد الباسط بن محمد المناسي، ومحمد بن رافع بن بصيري.

ـ **سنة الوفاة**: ١٤٤٢هـ ـ ٢٠٢٠م.

ترجمة الفقيد بقلمه

بعد أن ذكر رَحِمَهُ اللَّهُ سنة ولادته قال:

«وبدأت بقراءة القرآن الكريم على والدي ـ رحمه الله تعالى ـ في مبكر حياتي، ثم أسلمني والدي إلى الشيخ محمد قَيُّو؛ فأكملت عليه قراءة القرآن، ثم بدأت بقراءة الكتب الدينية حسب المناهج المقررة في أنظمة المدارس الريفية، فتلقيت علومًا كثيرة من والدي، ثم تلقيت على المشايخ الفضلاء الذين كانوا محط أنظار أهل عصرهم في نشر العلم، وأخص منهم هنا اختصارًا الآتية أسماؤهم:

فمنهم: والدي العلامة الجليل، والدراكة النبيل، الفقيه الأصولي المحدث الشيخ علي بن آدم بن موسى الإتيوبي الورهمني الأصل اللجهدي المهاجر المتوفى يوم الخميس ١٤١٢هـ، وله نيف وثمانون سنة ـ رحمه الله تعالى ـ، كان بارعًا في الفقه وأصوله، والنحو، والبلاغة، وغير ذلك من فنون العلم المختلفة، وتخرج على يديه كثير من طلاب العلم في بلدنا، وله عليّ بعد ـ فضل الله تعالى ـ اليد الطولى في تحصيل العلم، قرأت عليه كتب العقائد المقررة في بلدنا، وكتب الفقه الحنفي المقرر فيه؛ كمختصر القدوريّ مع شروحه، وكنز الدقائق مع شرح العيني، وتنوير الأبصار مع شرحه، والفوائد السمية شرح الفرائد السنية، وغيرها من الكتب المقررة في المدارس الريفية في بلدنا.

وقرأت عليه من كتب أصول الفقه: المنار وشرحه وحواشيه، والتوضيح لصدر الشريعة مع شرحه التنقيح، وكتاب التسهيل، وجمع

الجوامع مع شرح المحلي، وحاشيتي البناني والعطار، ولب الأصول مع شرحه، وقرأت عليه التلخيص للقزويني في البلاغة مع شروحه، وقصيدة حرز الأماني في القراءات السبع للشاطبي مع شرحها سراج القاري، وصحيح البخاري، وبعض كتب علم الحساب، وعلم الجبر والمقابلة، وكتب علم الميقات، وتعلمت منه الرُّبْع الْمُجَيَّب.

وبالجملة؛ فأكثر ما لدي من العلوم منه، وأجازني بلفظه، وكتب لي إجازة فائقة، رحمه الله تعالى، وجزاه الله تعالى عني خير الجزاء، وجعل الجنة مثواه.

ومنهم: الشيخ محمد قيُّو بن وديّ رَحِمَهُ اللَّهُ قرأت عليه القرآن الكريم.

ومنهم: العلامة اللغويّ الشيخ محمد سعيد ابن الشيخ علي الدَّرّيّ رَحِمَهُ اللَّهُ، جلست عنده ما يقارب ثلاث سنين، فأخذت منه بعض الصحيحين، والنحو، والصرف، والبلاغة، والمنطق، والمقولات العشر، وآداب البحث والمناظرة، وأصول الفقه، كما قرأت عليه بعض الفواكه الجنية للفاكهيّ، وألفية ابن مالك، وشرح ابن عقيل عليها، وحاشية الخضري عليه، ومجيب الندا على قطر الندى مع مراجعة حاشية ياسين الحمصي، ومغني اللبيب عن كتب الأعاريب مع مراجعة حاشيتي الدسوقي والأمير، وشافية ابن الحاجب مع مراجعة شروحها، وكتب البلاغة؛ كتلخيص القزويني مع شرحه وحواشيه، وكتب المنطق؛ كالسلم المنورق وشروحها وحواشيها، والإيساغوجي وشروحها، ومتن الشمسية، والمقولات العشر، ورسالة في علم الوضع، ومن كتب أصول الفقه، المنار وشروحها وحواشيها، وكتب لي إجازة فائقة.

وبالجملة؛ فجلّ ما أخذته من فنون العربية منه ـ رحمه الله وجزاه عني خير الجزاء ـ.

ومنهم: العلامة النحوي الشيخ عبد الباسط بن محمد بن حسن الإتيوبيّ البورنيّ الْمِنَاسيّ ـ رحمه الله تعالى ـ، تلقيت منه العلوم العربية وغيرها، فقرأت عليه إعراب المقدمة الأجرومِيَّة، وملحة الإعراب، وشرحها كشف النقاب، والفواكه الجنية، ونظم طلعة الأنوار في مصطلح الحديث، وأجازني، واستخلفني في مدرسته لما كان يسكن أديس أبابا مرتين، فدرست كتب النحو والصرف والبلاغة هناك فترةً من الزمن، وكتب لي إجازة فائقة، فجزاه الله عني خير الجزاء[1].

ومنهم: الشيخ المقرئ المحدث حياة بن عليّ الإتيوبيّ الدّرّيّ ـ رحمه الله تعالى ـ، قرأت عليه بعض الصحيحين، وغيرهما، وأجازني، وأملى عليّ إجازته، فكتبتها.

ومنهم: العلامة الشيخ محمد زين بن محمد ياسين الداني رَحِمَهُ اللَّهُ، قرأت عليه معظم صحيح مسلم مع شرح النوويّ، وأوائل السنن الكبرى للبيهقي، وسمعت كثيرًا من صحيح البخاري، بقراءة غيري عليه، وكذا تفسير القرآن الكريم، والجوهر المكنون في البلاغة، وطلعة الأنوار مع شرحها، مع مراجعة تدريب الراوي في مصطلح الحديث، وغير ذلك.

ومنهم: العلامة محدث الديار الحبشيّة في العصر الحاضر الشيخ محمد بن رافع بن بصيري ـ رحمه الله تعالى ـ، قرأت عليه جامع الإمام الترمذي، وسمعت عليه سنن أبي داود، والنسائيّ، وابن ماجه، وبعض صحيح مسلم، بقراءة غيري عليه، وأجازني بجميع مروياته، وأملى علي إجازته فكتبتها، فجزاه الله عني خير الجزاء.

---

(١) ومن صور بره بشيخه عبد الباسط اعتناؤه بمؤلفاته، منها: شروحه لمنظوماته في مغني اللبيب، وفي نظم التصريف، وفي نظم نخبة الفكر، وكان بإمكانه أن ينظم هذه الكتب بنفسه في منظومات مستقلة.

ومنهم: العلامة المحقّق، والمفسّر المدقّق محمد ثاني بن حبيب، قرأنا عليه ـ رحمه الله تعالى ـ جمع الجوامع لابن السبكي في أصول الفقه مع مراجعة شروحه وحواشيه، وبعض الشاطبية، وغير ذلك من الفنون.

ومنهم: العلامة الفقيه اللغويّ الشيخ علي جمّيّ اللجهديّ ـ رحمه الله تعالى ـ، أخذت منه الفقه، والبلاغة، وغيرها.

ومنهم: العلامة اللغويّ الشيخ محمد عرب الأجامسيّ ـ رحمه الله تعالى ـ، قرأت عليه بعض كتب النحو.

ومنهم: الفقيه المحقّق الشيخ سعيد دكشا ـ رحمه الله تعالى ـ، قرأت عليه بعض كتب الفقه.

ومنهم: الشيخ المفسّر عبد الجليل ابن الشيخ علي الْبَرِيَديّ، قرأت عليه تفسير القرآن مرّتين.

ومنهم: الشيخ الفقيه حسين تولّيّا ـ رحمه الله تعالى ـ، قرأت عليه بعض كتب الفقه.

ومنهم: الشيخ سراج البجمدريّ ـ رحمه الله تعالى ـ، قرأت عليه كثيرًا من كتب الفقه.

ومنهم: الشيخ المحقق عمر بن علي بن بشرى الطبيّ، قرأت عليه كثيرًا من كتب الفقه والبلاغة والعروض، وغير ذلك.

ومنهم: الشيخ أحمد الدين الشافعيّ، قرأت عليه بعض كتب الفقه الشافعيّ.

ومنهم: أخونا الفاضل الشيخ سراج بن محمد الجاميّ الشافعي، قرأت عليه المقدمة الحضرميّة في الفقه الشافعيّ.

ومنهم: الشيخ إدريس قَيُّو، قرأت عليه كثيرًا من كتاب منهاج

الطالبين في فقه الشافعيّ[١].

ومنهم: الشيخ علي بن آدم الْيَصَليّ، قرأت عليه كشف النقاب شرح ملحة الإعراب، والفواكه الجنية، وغير ذلك.

ومنهم: أخونا الفاضل محمد بن جبريل، قرأت عليه من كتب الصرف: مراح الأرواح، وتصريف العزي، والبناء، والمقصود، ولامية الأفعال، وغيرها.

ومنهم: الشيخ الفاضل النحوي يوسف السِّيسِي ـ رحمه الله تعالى ـ، قرأت عليه بعض كتب النحو.

ومنهم: العلامة اللغويّ الدراكة الفهامة محمد ولي بن أحمد بن عمر الدريّ، حضرت كثيرًا مِنْ دروسه الممتعة.

ومنهم: صاحبنا الشيخ محمد سراج بن صالح الرايويّ، ثم اليمنيّ، ثم المكيّ، قرأت عليه سنن أبي داود كلّه، وناولني ثبتًا سمّاه نيل المرام.

ومنهم: الشيخ محمد نور ابن الشيخ إدريس اليجويّ ـ رحمه الله تعالى ـ.

ومنهم: محمد أول الوُراجي حضرت دروسه كثيرًا.

ومنهم: الشيخ إسماعيل بن عثمان زين اليمني ـ رحمه الله تعالى ـ، أخذت منه حديث الرحمة المسلسل بالأوليّة، والمسلسل بتحريك الشفة، وقرأت عليه كثيرًا من موطأ الإمام مالك، وكثيرًا من صحيح البخاري، وكثيرًا من سنن النسائي، وأجازني إجازة فائقة، وناولني ثبته.

ومنهم: المسند الكبير الشيخ محمد ياسين بن محمد عيسى الفاداني

---

(١) يستفاد من اختلاف مذاهب مشايخه أنه رَحِمَهُ اللَّهُ اطلع على كتب المذاهب الفقهية كالحنفي والشافعي في بلاد الحبشة، وأما المذهب الحنبلي فقد درسه في مكة المكرمة.

المكي ـ رحمه الله تعالى ـ، قرأت عليه الأوائل السنبليّة، وناولني كثيرًا من مؤلفاته، وأكثرها في الأسانيد.

ومنهم: العلامة المحدث محمد المنتصر الكتانيّ، حضرت دروسه، وكتب لي إجازة بالحديث المسلسل بالأولية، وغيرها بخطه.

ومنهم: المحدث الكبير الشيخ محمد بن عبد الله الصوماليّ ـ رحمه الله تعالى ـ[(١)].

ومنهم: العلامة عبد الله بن محمد الصدّيق الغماريّ، أجازني بجميع مروياته، وكتب لي إجازة بذلك.

ومنهم: الشيخ أبو بكر زُهير بن مصطفى الدمشقيّ، كتب لي إجازة، وأرسل لي ثبته.

ومنهم: الشيخ مولوي إعزاز الحق بن مولوي مظهر الحق الأركاني المكيّ، كتب لي إجازة أجازني بها، وغير هؤلاء، من علماء بلدنا، واليمن، والحجاز، والمغرب، وغيرهم، جزى الله تعالى عني الجميع خير الجزاء، وجعل مستقرّهم الجنة، وجمعني وإياهم في دار كرامته، بمنه وفضله، إنه جواد كريم[(٢)].

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: وبعد أن تخرجت على أيدي هؤلاء الأعلام بدأت في تدريس هذه العلوم المذكورة مدة تقارب أربع سنين[(٣)].

ثم إن الأمور تضايقت عليَّ بسبب غزو النظام الشيوعي لبلدنا؛ فعزمت على الهجرة إلى الحرمين الشريفين فرارًا بديني، فهاجرت سنة

---

(١) وهو من علماء دار الحديث الخيرية رَحِمَهُ اللَّهُ، وكان يدرّس فيها صحيح البخاري وغيره.

(٢) بطاقة المعلومات، وقائمة شيوخه منتقاة بتصرف من ترجمة الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ لنفسه في ثبته «مواهب الصمد لعبده محمد» (ص٨ ـ ١٣) ومن أبنائه وبعض الفضلاء في المعهد والدار.

(٣) ويعني بالأعلام المشايخ الذين تتلمذ على أيديهم تتلمذًا مباشرًا في بلده؛ فحضر دروسهم وقرأ عليهم، وقد سبق (ص١٧) أنه رَحِمَهُ اللَّهُ خَلَفَ شيخه عبد الباسط المناسي في التدريس مرتين في بلاد الحبشة.

١٤٠١هـ، فما أن وصلت إلى مكة المكرمة طَلَبَ لي بعض الإخوة التدريس في بعض المدارس، وذكر لمسؤوليها أني كنت مدرسًا في بلدي، فطلبوا مني الشهادة، فأخبرتهم بأنه ليس عندنا شهادة؛ فرفضوا القبول، ولما لم أجد سبيلًا إلى التدريس طلبت أن أكون طالبًا، فلم أجد القبول أيضًا إلا في معهد الحرم المكي[١]، فقُبلت فيه[٢].

ولما أنهيت المرحلة الثانوية انتقلت إلى دار الحديث الخيرية[٣]،

---

(١) (معهد الحرم المكي الشريف): صرح عظيم من صروح العلم بداخل المسجد الحرام، أسّسه الفقيه العلامة عبد الله بن حميد رَحِمَهُ اللَّهُ سنة ١٣٨٤هـ بعد موافقة الملك فيصل بن عبد العزيز آل سعود رَحِمَهُ اللَّهُ.
ثم صدر لاحقًا قرار مجلس الوزراء برقم (٢٧٩٦) وتاريخ ٧/ ٢/ ١٣٨٥هـ تحت مسمى (معهد الحرم المكي).
ويضم المعهد ثلاث مراحل دراسية:
الإعدادية والثانوية والعالية، ثم استقلت هذه المرحلة بإدارة تحت مسمى (كلية الحرم المكي) تضم خمسة أقسام: قسم الشريعة ـ قسم القرآن وعلومه ـ قسم السُّنَّة وعلومها ـ قسم العقيدة ـ قسم اللغة العربية.
ويدرس الطلاب في هذه المراحل كتبًا شرعية ومقررات علمية معروفة.
ويقوم بتدريسهم وتعليمهم نخبة من العلماء وأهل العلم الذين تخرج على أيديهم آلاف الطلاب منذ تأسيسه.
ولكل من المعهد وكلية الحرم فرع في المسجد النبوي.
والرئاسة العامة لشؤون الحرمين الشريفين هي الجهة التي تتولى الإشراف على المعهد بفرعيه وكليتيه بالمسجد الحرام والمسجد النبوي.
أملاه عليّ الشيخ محمد السيلاني، ومن كتاب (درة الجمع اللطيف في تأريخ وجهود وثمرات معهد الحرم المكي الشريف) لأخينا الشيخ إسحاق بن هارون الرشيد الطاهر.

(٢) أخبرني الشيخ محمد السيلاني ـ مدير شؤون الطلاب بمعهد الحرم المكي الشريف سابقًا ـ أن شيخنا محمدًا ـ رحمه الله تعالى ـ لما تقدم للدراسة بالمعهد عام ١٤٠٢هـ لم يكن لديه أي مؤهل علمي أو وثيقة رسمية، إلا أن أنظمة القبول وقتئذ كانت تسمح لمن يحفظ القرآن الكريم مع اجتياز المقابلة الشخصية أن يقبل في المعهد، وبطبيعة الحال بعد هذه الإجراءات تم قبوله بالصف الأول المتوسط، ودرس فيه المرحلتين: المتوسطة والثانوية مدة ست سنوات.

(٣) (دار الحديث الخيرية) صرح علمي كبير افتتح عام ١٣٥٢هـ بواسطة الشيخ عبد الظاهر =

فذُكِر لمديرها آنذاك الشيخ علي بن عامر الأسدي رَحِمَهُ اللَّهُ أني كنت مدرسًا في بلدي، وإنما التحقت في معهد الحرم لعدم المؤهل للتدريس وهو الشهادة، فقال ـ جزاه الله عني خيرًا ـ: العمدة عندنا العلم لا الشهادة![1] فقبلني مدرسًا، ورفع اسمي إلى المجلس الأعلى للدار، وكان رئيسه آنذاك سماحة الشيخ عبد العزيز بن عبد الله بن باز رَحِمَهُ اللَّهُ فوافق المجلس على تعييني مدرسًا، فبدأت في التدريس، ولا زلت ـ ولله الحمد ـ إلى الآن مدرسًا في دار الحديث الخيرية.

= أبي السمح ـ إمام وخطيب المسجد الحرام في ذلك الوقت ـ وقد وافق على افتتاحها الملك عبد العزيز ـ رحمه الله وطيّب ثراه ـ، وبعد هذه الموافقة الملكية السامية فتحت دار الحديث الخيرية بمكة المكرمة أبوابها لطلبة العلم في ربيع الأول من العام نفسه.
ويقوم بتسيير أمور الدار وإدارتها مجلس أعلى يضم نخبة من كبار علماء المملكة يرأسه سماحة مفتي عام المملكة الشيخ عبد العزيز بن عبد الله بن محمد آل الشيخ، ونائبه رئيس مجلس الشورى الشيخ د. صالح بن عبد الله بن حميد.
وتُعنى الدار بدراسة علوم الكتاب والسُّنَّة، ودراسة سائر العلوم الشرعية والعربية، ولها عناية خاصة بدراسة الحديث النبوي الشريف وأمهات الكتب الحديثية، وتهدف إلى تربية طلاب العلم تربية إسلامية صحيحة مبنية على العقيدة السليمة والعبادة المستقيمة؛ فهي تجمع الرواية والدراية والأصالة والمعاصرة.
وتتكون من ثلاث مراحل دراسية:
* المرحلة المتوسطة: ومدة الدراسة بها ثلاث سنوات، وشهادتها معادلة من وزارة التربية والتعليم.
* والمرحلة الثانوية: ومدة الدراسة بها ثلاث سنوات، وشهادتها معادلة من وزارة التربية والتعليم.
* والمرحلة العالية: ومدة الدراسة بها أربع سنوات، وتمنح شهادة (البكالوريوس) وهي معادلة بالشهادة التي تمنحها الجامعات السعودية من وزارة التعليم العالي.
وقد نفع الله بها وبطلابها في شتى أصقاع الأرض؛ فكم خرَّجَتْ من الدعاة والفقهاء وطلاب العلم يدعون إلى الله على بصيرة، شعارهم ودثارهم الدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة، وتعليم الناس العلم الشرعي.
وللاستزادة ينظر: كتاب نبذة عن دار الحديث الخيرية، والموقع الرسمي للدار.

(١) وكان الشيخ ـ رحمه الله تعالى ـ كغيره من أهل العلم والفضل يردد ما معناه: الشهادة لا تنفع بلا علم ولا عمل، ومرة قال: إن حصلت فخير.

أسأل الله تعالى أن يختم لي بالخير والحسنى، إنه وليّ ذلك والقادر عليه»[١].

ومما منَّ الله به عليّ أن حبّب إليّ علم الحديث من صغري، فكنت ـ وأنا صغير السن ـ حينما كان والدي يقرأ صحيح البخاري، أختبئ وراء الجدار حتى أسمع قراءة القارئ، فكان يتحرك قلبي شوقًا عند سماع صحيح البخاري، وكنت خلال طلبي للعلوم المذكورة أبحث عما صح في الحديث حتى أعمل به، فكنت أرفع يدي في الركوع وغيره مع أن مذهب منطقتنا مذهب حنفي لا يلتفت أهله إلى العمل بالحديث المخالف للمذهب، فلما هاجرت إلى مكة، وبدأت أدرُس في معهد الحرم، وطالعت كتب شيخ الإسلام ابن تيمية، وابن القيم، والشيخ محمد بن عبد الوهاب ـ رحمهم الله ـ وجدت فيها ما يناقض ما عليه كتب العقائد المقررة في بلدنا، فبدأت أسير على المنهج الذي سلكته سابقًا، وهو اتباع ما صح دليله، فوجدت ما في كتب هؤلاء موافقًا للنصوص الصحيحة، فتركت ما كنت أعتقده مما تلقيته من مشايخي الأشعريين في بلدنا، وتخليت عنه.

فلما سافرت إلى بلدي لزيارة والدي قال بعض أهل البلد: إنك صرت وهابيًّا! فقلت: لا؛ بل أنا متبع للنصوص، وأنت تعلم قبل أن أذهب إلى مكة أني أتبع النصوص الصحيحة، فقال: نعم أعرف ذلك إلا أنك ازددت تشددًا، فقلت له: ألا تعلم أن الإمام الشافعي لما كان في الحجاز والعراق كان له مذهب، ولما ذهب إلى مصر، ووجد الأدلة الكثيرة ترك مذهبه القديم، وأسس مذهبه الجديد، فكذلك أنا لما وجدت الأدلة التي غابت عن أهل بلدنا صرت أتبعها، وأعمل بمقتضاها، ـ وهذا هو الذي أسير عليه في حياتي أبدًا إن شاء الله تعالى[٢].

---

(١) ترجمة الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ لنفسه في ثبته «مواهب الصمد لعبده محمد» (ص٨ ـ ١٣).
(٢) ذكر ذلك الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ في بعض دروسه.

جهوده في التعليم والتدريس

إن جهود الأعلام والمصلحين العظام من أمثال الشيخ محمد بن علي بن آدم بمنزلة مدارس يستقي طلابُ العلم من مَعِينها الصافي منهجهم القويم.

وما أروعَ أن تستنيرَ أجيالُ العلم وتحتذيَ بالجد والتحصيل، سائرين على التأسيس والتأصيل!

يقول الإمامُ أبو حنيفة ـ رحمه الله تعالى ـ:

(الحكاياتُ عن العلماءِ ومحاسنهم أحبُّ إليَّ من كثيرٍ من الفقه؛ لأنها آدابُ القوم)[1].

* وهذه وقفات نسطرها اليوم لتصفَ بعضَ ما كان عليه عالِمُنا الموسوعي من مسيرته في بذل العلم وبثه منذ أن كان مدرسًا بدار الحديث الخيرية بأجياد ومسجدِها الذي انطلق منه معظم دروسه في الفترة المسائية من عام ١٤٠٩هـ تقريبًا، واستمرت أكثر من ثلاثة عقود في مساجد مكة وغيرها.

كانت دروسه ثرية ذاخرة؛ حيث كان ملقيها رَحِمَهُ اللَّهُ متبحرًا في فنون العلم، متفننًا في المعارف المتعددة، حافظًا للنصوص والمتون النثرية والشعرية، حبب إليه علم الحديث من صباه، ينطلق فيما يدرس ويؤلف

---

(١) جامع بيان العلم وفضله للإمام ابن عبد البر (١/٥٠٩)، ترتيب المدارك وتقريب المسالك للقاضي عياض (١/٢٣).

مما أوتي من علوم الآلة والأصول واللغة، يجعلها داعمة خادمة لفهم الكتاب والسُّنَّة.

كان رَحِمَهُ اللَّهُ نشيطًا قويًّا يتحمل الإلقاء المتواصل ويستمتع معه الطلاب بإطالة الشرح والتفصيل في المسائل، ولا نذكر اعتذارًا عن دروسه إلا أيام الامتحانات، أو لبعض الظروف الطارئة كتشييع جنازة.

* وبرنامجه الثابت بعد أن قَدِمَ مكة المكرمة بسنوات مبنيٌّ على ثلاثة أعمال رئيسة لا يكاد يتخلف عن أدائها وتنفيذها مهما كانت الأحوال:

أولًا: الدروس النظامية المنهجية صباحًا من عام ١٤٠٨هـ إلى ما قبل وفاته بأسبوعين عام ١٤٤٢هـ.

ثانيًا: الدروس المسائية في المساجد وغيرها، وقد بدأها قبل عام ١٤٠٩هـ إلى عام ١٤٤١هـ.

ثالثًا: تأليف الكتب والأسفار.

* وسنتناول الآن هذه الأعمال باستفاضة.

❁ أولًا: الدروس النظامية المنهجية صباحًا:

درّس ـ رحمه الله تعالى ـ في جميع المراحل الدراسية: المتوسطة والثانوية والعالية (البكالوريوس).

ومن الكتب التي درّسها: الكتب الستة، وتدريب الراوي، والبلاغة الواضحة، وغيرها.

ودرّس صحيح البخاري كثيرًا، وسنن أبي داود وسنن النسائي، وقد علمنا أنه رَحِمَهُ اللَّهُ ختم صحيح البخاري حسب المنهج المقرر في الدار (دراسة وقراءة) مرات كثيرة، واستفاد من شرحه آلاف الطلاب من المنتظمين والمنتسبين.

كما شارك ـ رحمه الله تعالى ـ في الأنشطة اللاصفية التي كانت

تقام لطلاب الدار؛ كالمحاضرات والندوات والرحلات وغيرها.

وقد تخرّج على يده وتتلمذ عليه خلق كثير لا يُحصَون؛ وذلك لأنه ـ رحمه الله تعالى ـ درّس مدةً تزيد على ثلاثة عقود[١].

✿ ثانيًا: الدروس المسائية في المساجد وغيرها:

* فمن دروسه التي أقامها بمسجد الدار بأجياد:

ـ **درس الصحيحين**: البخاري ومسلم، وحبه للأول وشرحِه (فتح الباري شرح صحيح البخاري) بلغ درجة سامية لا يمكن وصفها، وكان يكرر دائمًا قوله: لولا فتح الباري ثم فتح الباري ما قضيت أوطاري[٢].

ويقصد رَحِمَهُ اللَّهُ بفتح الباري الأول فتح الله عَزَّوَجَلَّ وتوفيقه وعونه، ثم يقصد بالثاني فتح الباري شرح صحيح البخاري للحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ[٣].

وكان قبلَ دَرْسِ (صحيح البخاري) أو غيره من كتب الحديث يستمع للطلاب تراجم الرواة من كتابه (قرة العين) في تلخيص تراجم رجال الصحيحين.

وهذه عادته رَحِمَهُ اللَّهُ مع طلابه في المنهج الصباحي منذ أكثر من خمس وعشرين سنة، وغالبًا يحدد خمسة من الرواة، وتشمل الترجمة: (اسم الراوي وكنيته ولقبه ودرجته وطبقته) في الغالب.

ـ **دروسه في السنن الأربع**: الترمذي وسنن أبي داود والنسائي وابن ماجه[٤].

---

(١) كما درّس رحمه الله تعالى في بلاد الحبشة.

(٢) ذكره الشيخ في مقدمة شرح النسائي، وكنا نسمعه يكرره كثيرًا.

(٣) وكان رَحِمَهُ اللَّهُ معجبًا بالحافظ ابن حجر ـ رحمه الله تعالى ـ وكثيرًا ما كان يقول: «هو حذام المحدثين المتأخرين». ذكره في مقدمة شرح ابن ماجه.

(٤) وكان مسجد الكعكي بالقشلة أول مسجد يلقي فيه دروسه المسائية قبل عام ١٤٠٩هـ ـ =

وكان ـ رحمه الله تعالى ـ يدرّس هذه الكتب الستة سندًا ومتنًا، رواية ودراية بتحقيق علمي لم نر مثله؛ فقد كان يحفظ عددا هائلا من الرواة بأسمائهم وألقابهم وبلدانهم ودرجاتهم وطبقاتهم وما يتعلق ببعضهم من مواقف وقصص ولطائف؛ بل كان يضبط هذه المعلومات المتعلقة بالرواة (تلاميذهم وشيوخهم) تمييزًا لهم عن غيرهم نثرًا ونظمًا، ولا أدل على ذلك مما ضمنه كتابه (الفوائد السمية) وغيره مما استفاد من كتب مَن قبله، أو من خبرته في التأليف والتدريس؛ كقاعدة:

ـ من كان لا يروي إلا عن ثقة.

ـ ضوابط التمييز بين ما اتفقت أسماؤهم واختلفت أعيانهم (المتفق والمفترق) كالتمييز بين السفيانين والحمادين إذا أهملوا في السند.

ـ كيفية رواية الحديث عن شيخين فأكثر.

ـ ضابط التفريق بين ابنَي بريدة بن الحصيب.

ـ بيان من روى عن عطاء بن السائب قبل الاختلاط أو بعده، وغيرها من القواعد والضوابط النافعة في علوم الحديث.

ثم يبيِّن رَحِمَهُ اللَّهُ في شرح كتب الحديث ما في بعض الأسانيد من علل كانقطاع وإرسال أو تدليس ونحوه من مسائل علم المصطلح والجرح

= كما أخبرنا الشيخان صلاح سليمان التونسي، وعبد الله عوض، وهما من قدامى تلاميذ الشيخ، وأن الشيخ كان قد قطع فيه شوطًا في سنن أبي داود والترمذي، ثم أكملهما في مسجد الدار بأجياد، وكان يدرسهما بعد المغرب، ويدرس الصحيحين بعد العشاء في ليلتين أخريين.

أما سنن النسائي وابن ماجه فابتدأ فيهما بمسجد الدار بأجياد.

ثم استقرت جميع دروسه في مسجد دار الحديث الخيرية بأجياد. وذكر لي أخونا الشيخ ياسر الشافعي أن بعض طلبة العلم وعددهم أربعة كانوا يحضرون له في سكنه التابع للمسجد الذي كان مؤذنًا فيه فترة، وكان يدرسهم الكتب الستة.

والتعديل بطريقة نظرية وتطبيقية في آن واحد تترسخ بها القواعدُ والأحكامُ في أذهان طلابه.

أما طريقته في شرح متون الحديث فغالبًا تُماثِلُ منهجَه في شرحه لسنن النسائي: بيان الغريب، وأوجه الإعراب، وذكر مذاهب العلماء في المسألة مع الإشارة إلى أشهر الفوائد المستنبطة من الحديث، وكان كثيرًا ما يختم المسألة بقوله: (والحاصل، والمقصود، وحاصل المعنى ونحوه) فيذكر ملخص الدرس أو المسألة.

ولا شك أن هناك فرقًا في جوانبَ بين الشرح الارتجالي والتحريري المتبع في التأليف.

والشيخ ـ رحمه الله تعالى ـ ذكر غير مرة أنه يستمتع بعلم الحديث تعلمًا وتعليمًا وتأليفًا، وقد حبب إليه من صباه كما ذكر في ترجمته الآنف ذكرها.

ـ ومن دروسه في مسجد الدار بأجياد درسه في كتابه (شرح ألفية السيوطي في مصطلح الحديث) والمسمى (إسعاف ذوي الوطر في شرح نظم الدرر على ألفية الأثر).

ـ درّس كتاب (نثر الورود شرح مراقي السعود) للشيخ محمد الأمين الشنقيطي[(١)].

ـ كما درّسَ كتابه (الجليس الصالح النافع بتوضيح معاني الكوكب الساطع نظم جمع الجوامع) للسيوطي في أصول الفقه[(٢)].

---

(١) وأخبرني الشيخ محمد المعتز الكامل أنه وصل فيه إلى (٨٠٠) بيت، ثم توقف ولم يكمله.

(٢) وأخبرني الشيخ محمد المعتز الكامل أنه وقف فيه عند نهاية أبواب القياس، وذلك لما طبع كتابه (المنحة الرضية شرح التحفة المرضية) فشرع في تدريسه.

وكان قبله درّس لياليَ (إرشاد الفحول) للإمام الشوكاني؛ فلما استصعبه الطلاب استبدله بكتابه[١].

- ودرّس (شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك) في النحو والصرف، و(شذور الذهب في معرفة كلام العرب) لابن هشام الأنصاري.

- ودرّس (شرح عقود الجمان في علم المعاني والبيان) للسيوطي.

- ودرّس في الصرف (لامية الأفعال)، و(متن البناء).

* ثم نُقلت دروسه إلى المكتب التعاوني بشارع المنصور بمكة، ومكث فيه أشهرًا، ثم إلى جامع الأبرار.

ودرّس فيهما كتبًا منها:

- صحيح البخاري، وصحيح مسلم، وسنن النسائي.

- كتابه (الجليس الصالح النافع شرح الكوكب الساطع نظم جمع الجوامع) للسيوطي.

- (التحفة المرضية شرح المنحة الرضية) منظومة في أصول الفقه، وقد أكملها.

- كتابه (فتح الكريم اللطيف شرح أرجوزة التصريف) نظم مراح الأرواح، وهو لشيخه عبد الباسط البورني المناسي، وقد أكمله.

- شرح ابن عقيل على ألفية بن مالك، مع حاشية الخضري، وأكمله.

- شرح المرشدي على نظم العزي.

- كتابه (فتح القريب المجيب في شرح كتاب مدني الحبيب ممن يوالي مغني اللبيب).

---

(١) وأخبرني بذلك أيضًا أخونا الشيخ محمد المعتز الكامل وغيره.

ـ شرح لامية الأفعال بشرح بحرق مع حاشية الرفاعي، وقد أكمله.

ـ شرح شذور الذهب لابن هشام، وقد أكمله.

ـ عمدة التفسير مختصر تفسير ابن كثير لأحمد شاكر.

* كما شارك رَحِمَهُ اللَّهُ في إلقاء دورة علمية مكثفة بمسجد مدحت شيخ الأرض، وركز فيها على كتب الصرف ومتونه؛ حيث شرح فيها:

ـ لامية الأفعال، ومتن البناء، وغيرهما.

ـ وشرح في النحو: حاشية أبي النجا على شرح خالد الأزهري للآجرومية.

ـ وشرح فيها نخبة الفكر في المصطلح.

* وتركيزه رَحِمَهُ اللَّهُ في دروسه على علوم اللغة العربية ـ بجانب علوم الحديث والأصول ـ لأهميتها وحاجة طالب العلم إليها في جميع العلوم والفنون، وهو في اللغة وفنونها إمام حاذق ضليع ذو دراية عالية باشتقاقات الألفاظ ودلالاتها ومعانيها وأعاريبها، يستحضر تفاصيلها ودقائقها، ودروسه في الغالب لا تخلو من الاستشهاد بالشواهد الشعرية وأبيات ألفية ابن مالك.

وقد ذكر لنا مرة في دروس مسجد الدار بأجياد أنه يتعاهد الألفية بين الفينة والأخرى كما يراجع بعضنا القرآن.

ومما ذكره رَحِمَهُ اللَّهُ في بعض دروسه أنه كان يحفظ معظم ألفية السيوطي في النحو، وذكر أنها أغزر علمًا ومسائل من ألفية ابن مالك؛ إلا أن الأخيرة كتب لها الانتشار والقبول.

* ومؤلفاته رَحِمَهُ اللَّهُ في علوم اللغة نثرًا ونظمًا دالة على تمكنه وإلمامه الواسع، ومما لمسنا ثمرته وفائدته ضبطه بعض القواعد اللغوية في

مقطوعات من بحر الرجز، وقد تكون الفائدة ذكرها غيره ممن سبقه من العلماء نثرًا، فينظمها بقصد التسهيل، مثل:

- في أول من قال: أما بعد.
- في ضبط الأسماء والألقاب.
- في الأفعال المنحوتة.
- في لغات لدن، والتراب، وقط وغيرها.
- في أسماء الصداق وضبطه.
- في إعراب أسماء الشرط والاستفهام.
- في نظم ما بني للمجهول.
- في الكلام على مرجع ضمير الغائب.
- في أنساب العرب.
- في بيان بعض الأفعال التي يتعدى ثلاثيها... إلخ.
- في أسماء المولود في أطواره المختلفة.
- في بيان أسماء عِرْق الحياة.
- في أسماء الصداق.
- في لغات التراب.
- في الأعضاء المبدؤة بالكاف من الإنسان.
- في بيان لغات قط.
- في المواضع التي يطّرد فيها حذف الجار مع بقاء مجروره.
- في معاني المولى.
- في الأسماء المعدولة من فاعل إلى فُعَل.

ـ في الكلمات التي وردت اسمًا وفعلًا وحرفًا.

ـ في بيان الأسماء الستة للفعل الثلاثي المجرّد.

ـ في بيان إعراب أسماء الشرط والاستفهام، وغيرها.

* كان رَحِمَهُ اللَّهُ يستغرب في أكثر من موقف من غلبة اللهجة العامية على الفصيح لا سيما في المدارس ونحوها، وذكر لنا مرة أنه استمع لحلقة مناقشة لإحدى الرسائل الجامعية في بعض الإذاعات؛ فمما ذكره متعجبًا أن الدكتور المناقش كان ينتقد الطالب صاحب الأطروحة في مسائل لغوية باللغة العامية، والطالب يجيب عنها بلغة فصيحة مع كونه من دولة غير عربية!.

سألته مرةً عمن يتكلم فوافق وجهًا صحيحًا غير مشهور من أوجه اللغة العربية في مسألة ما، أو يكون حرفًا مرجوحًا أو تكلمت به بعض قبائل العرب، أو له توجيه لغوي أو تقدير سائغ مما ورد في مسائل خلافية؛ فكان جوابه ـ رحمه الله تعالى ـ في ذلك أن المتكلم به إن لم يعرف القاعدة العامة والطريقة الجادة أو أنه طالب علم لا يعرف تعليله وتوجيهه؛ فإنه يخطَّأ ولا يسوغ التبرير له؛ بل يوجَّه إلى المشهور الغالب؛ لأن هذا من نبذ المحفوظ وتتبع الغريب ونحوه، ومرة قال: هذا مثل القاضي الذي قضى للناس على جهل!.

ومن المواقف التي تدل على غَيرته رَحِمَهُ اللَّهُ على العربية أن أحد الطلاب أحضر كتابًا ينتقد فيه كاتبُه قواعدَ اللغة، فطلب مني عرضه على الشيخ فاطلع على عنوانه فغضب وقال: أهذا كاتب عربي؟ فقلت: نعم، فقال متعجبًا محوقلًا: أعربي يهاجم العربية!.

* ومن دروسه في المسجد الحرام:

ـ صحيح البخاري، وصحيح مسلم، وسنن أبي داود.

ـ عمدة التفسير مختصر تفسير ابن كثير لأحمد شاكر[١].

ـ شرح علل الترمذي لابن رجب.

ـ كتابه المنة الرضية في شرح البهجة المرضية نظم المتممة الآجرومية.

ـ كتابه المنة الرضية شرح الدرة المضية في نظم توحيد رب البرية.

* كما درّس في جامع الأمير سلطان بالزاهر:

ـ سنن الترمذي.

ـ سنن أبي داود.

ـ ألفية السيوطي في المصطلح.

ـ عمدة التفاسير لأحمد شاكر.

ـ جزءًا من شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك.

ـ القواعد الأربع والأصول الثلاثة وكشف الشبهات وكتاب التوحيد وفضل الإسلام والأصول الستة.

* وبعض هذه الكتب درسها رَحِمَهُ اللَّهُ غير مرة؛ كصحيح البخاري، وألفية ابن مالك، ولامية الأفعال في التصريف، وألفية السيوطي في المصطلح، وغيرها.

---

(١) ثم استأنفه في مسجد الأمير سلطان بالزاهر، وتوقف بسبب جائحة كورونا عند قوله تعالى: ﴿وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٠﴾﴾ آخر سورة المزمل، وهو آخر درس درسه رَحِمَهُ اللَّهُ في التفسير.

أخبرني الشيخ سعيد أجالي وغيره أن الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ عند تفسير قوله تعالى في سورة الأنعام: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ ۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾﴾. قال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ: «والمسألة تذكر في أول سورة النجم إن شاء الله».

عندها دعا شيخنا ـ رحمه الله تعالى ـ أن يبلغه الله عَزَّوَجَلَّ تفسير تلك الآيات وأن يصل إلى هذا الموضع؛ فكان أن بلّغه الله ذلك بفضله وزيادة، وكان آخر ما وقف عليه في التفسير أواخر سورة المزمل عند قوله تعالى: ﴿وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٠﴾﴾. اللّهم اغفر لشيخنا وارفع درجته عندك في العليين.

كانت تلكم الدروس المباركة ثرية باللطائف والفرائد، ذاخرة بالمعارف والفوائد، عامرة بالأدلة والشواهد.

ولهذا رأينا حرص كثير من طلبة العلم على حضور دروسه رَحِمَهُ اللَّهُ والالتحاق بها أينما حل في ربوع مكة وغيرها.

وكان الطلاب وهم متحلقون حوله ينهلون من نبعه المعرفي وحافظته السيالة وتعليقاته الدقيقة، وهو يؤصل ويفصل؛ يجدون عنده الإجابات الشافية في معظم المسائل المشكلة والمباحث المعضلة والخلافات التي يصعب ترجيحُ القول فيها.

نعم، كان الطالب يجد عنده رَحِمَهُ اللَّهُ ما يبل صداه، ويروي غليله، ويُزيح لثامَ الالتباس عن ذهنه في تلك المسائل.

وهذا أمر أدركه كل من حوله؛ فكان يُعدّ مرجعًا علميًّا تتوجه إليه أنظار تلاميذه وأقرانه وزملائه من علماء دار الحديث يأخذون بقوله ويعتدّون بترجيحاته.

بل إن صِيته رَحِمَهُ اللَّهُ وعلو كعبه في العلم أمر تجاوز هذا النطاق، فقد أخبرني نجل الشيخ أخونا عبد الجليل أنهم لما انتقلوا للسكنى بطلعة الملقية بحي العتيبية؛ رأى الناس توافد طلبة العلم والمشايخ على والده في منزله، حتى قال الشيخ سليمان اللهيبي ـ وهو من علماء ووجهاء الحي ـ: لا أحد يأتيني للسؤال والاستفتاء، اذهبوا للشيخ محمد بن علي آدم!.

* وكان ـ رحمه الله تعالى ـ يعتني ببيان مزايا بعض الكتب ومقارنتها وتقديم بعضها على بعض، من ذلك:

في المقارنة بين شروح صحيح البخاري كان يقول: إن فتح الباري لابن حجر أقوى وأحسن في الصناعة الحديثية، وعمدة القاري للعيني أفضل وأحسن في الصناعة اللغوية والبلاغية.

وفي المقارنة بين الألفيتين في المصطلح كان يقول: ألفية السيوطي أعلى وألفية العراقي أحلى.

وأحيانًا كان يقول: ألفية السيوطي أعلى وأوعب، وألفية العراقي أحلى وأعذب.

وفي المقارنة بين بعض المتون: يفضل في حفظ متون الأحاديث حفظ الصحيحين بالأسانيد على الجوامع والمختصرات محذوفة الأسانيد.

وفي المقارنة بين الألفيتين في النحو: يفضل ألفية ابن مالك على ألفية السيوطي؛ لأن الأولى كتب لها القبول والشهرة، وإن كانت ألفية السيوطي أغزر علمًا وأكثر مسائل.

ويفضل نظم شيخه عبد الباسط المناسي مغني اللبيب على نظم الأمير في النحو، ويفضل الكافية الشافية لابن مالك على احمرار المختار لابن بونا.

وفي المقارنة في منظومات أصول الفقه: يفضل نظم الكوكب الساطع على مراقي السعود[1].

❁ ثالثًا: تأليف الكتب والأسفار:

لم يشغل الشيخ محمد بن علي آدم رَحِمَهُ اللَّهُ حياتَه بما لا ينفع من مشاغل الدنيا وصوارفها؛ بل أقبَلَ مكبًّا على العلم بجميعه طالبًا وباحثًا ومعلمًا ومموليًا ومقرئًا ومجيزًا ومؤلفًا.

كان التأليف جلّ اهتمامه رَحِمَهُ اللَّهُ وقد اعتنى به عناية عظيمة وأولاه معظم وقته.

---

(١) كما أفادني في هذا الأمر الشيخ محمد المعتز، والشيخ حبيب صبور.

* وعمله رَحِمَهُ اللَّهُ في هذا الشأن على شِقَّين:

١ ـ **المشاريع الكبيرة**: كشرح النسائي ومسلم والترمذي، وقد وضع لها مدة يومية التزم بها، وكان يقوم بتأليفها في بيته.

ومن خطته في شرح النسائي كما ذكر لي ابنه الشيخ عبد الجليل، أنه أيام الدوام الخمسة كان يُشير إلى مسائل الموضوع ويضع لها علامات استفهام، ثم في آخر الأسبوع يومي الإجازة (الخميس والجمعة) يبحث فيها ويحقق في المسائل ويكتبها ثم يثبتها.

وكان يقول رَحِمَهُ اللَّهُ غير مرة: الناس يفرحون بالإجازة الأسبوعية وأنا أتفرغ فيها للبحث في المسائل[1]!.

واتّصافه رَحِمَهُ اللَّهُ بالجلَد والصبر لتحقيق هذه المشاريع المباركة أمر عجيب أَلِفه أهله المقربون منه؛ بل ذكر لي بعض أقاربه ـ منهم ابنه ـ أنه في الغالب ينام من الساعة الحادية عشرة والنصف، ويستيقظ الساعة الثانية قبل الفجر فيصلي ما شاء الله، ثم يتفرغ بكليته لأعماله العلمية.

وقد سأله الشيخ محمد المعتز: لم لا تستريح في الإجازة ولو بعض الأيام؟ فردّ رَحِمَهُ اللَّهُ بقوله: الإجازات تتضاعف فيها أعمالي أكثر من أيام الدوام!.

٢ ـ **المشاريع الصغيرة**: مثل الكتب ذوات الجزء الواحد أو الجزأين أو الرسائل ونحوها؛ فقد كان يقتنص لها من أوقات فراغه في الدار.

---

(١) وأخبرني بذلك أيضًا الشيخ محمد المعتز، والشيخ منير محمد إبراهيم، والشيخ جاسم محمد مبارك، وغيرهم.

وكثير من منظوماته وشروحاتها، ورسائله الصغيرة ونحوها إنما ألّفها في حصص الفراغ ووقت الفُسَح بالدار!.

وما أكثر الأيامَ التي شهدناها ـ نحن مدرسي الدار ـ، والشيخ تمر عليه الفُسَح ـ وهو على حاله لم يفطر ـ بل يكتفي بما يجد أمامه من طعام (رغيف بر أو قطعة منه) ولا يتطلّع غالبًا لأكثر من ذلك، ثم ينطلق إلى قاعة الدراسة مع قرع الجرس، وهذا من تواضعه ودأبه العفوي رَحِمَهُ اللَّهُ منذ سنوات![1].

وإنما ننقل شيئًا من هذا لبيان كيف أنه كان رَحِمَهُ اللَّهُ منهمكًا في التأليف حتى ينسى حاجة نفسه!.

وكأن الشاعر صوّر لنا هذه الحال فقال في وصيته:

رغيف خبز يابس ... تأكله في زاوية
وكوز ماء بارد ... تشربه من صافية
وغرفة ضيقة ... نفسك فيها خالية
أو مسجد بمعزل ... عن الورى في ناحية
تقرأ فيه مصحفا ... مستندًا بسارية
معتبرًا بمن مضى ... من القرون الخالية
خير من الساعات في ... ذيل القصور العالية
تعقبها عقوبة ... تُصْلَى بنارٍ حامية
فهذه وصيتي ... مخبرة بحاليه

(١) وهذا أمر شهده غيرنا لا سيما زملائي من المدرسين الذين كانت مكاتبهم في غرفة شيخنا رَحِمَهُ اللَّهُ، ولا يلزم أن يدل مثل هذا الموقف على الزهد والإعراض عما هو ألذ وأطعم؛ فلم يكن رَحِمَهُ اللَّهُ كذلك في واقعه الاجتماعي؛ بل المقصود من هذا ـ كما ذكرنا ـ انهماكه في التأليف، ومنحه الأولوية له، ليس إلا.

طوبى لمن يسمعها تلك لعمري كافية
فاسمع لنصح مشفق يدعى أبا العتاهية[١]

وبما أن الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ كان شديد الانشغال بالتأليف والنظم؛ فقد كان يطلب منا ـ نحن عددًا من الإخوة، منهم: الشيخ محمد طيب محمد أيوب، والشيخ منير محمد إبراهيم، والشيخ محمد المعتز الكامل والشيخ إبراهيم شلبي، وغيرهم ـ مراجعةَ أغلب منظوماته كألفيته في التوحيد المسماة بالدرة المضية في نظم توحيد رب البرية، ونظم التحفة المرضية في أصول الفقه، والبهجة المرضية نظم المتممة الأجرومية، وألفية شافية الغلل بمهمات علم العلل، وغيرها من المقطوعات الشعرية التي ضمّنها كتابه الفوائد السمية وغيره، وكان يفرح كثيرًا بالاستدراكات والتعديلات مع قِلّتها شاكرًا وداعيًا.

يقول أخونا الشيخ إبراهيم شلبي: «أذكر أنه في أثناء مراجعتي لنظمه على متممة الأجرومية وشرحها ظهر لي خطأ نحوي في غلاف الكتاب وكذا بعض الهنات اليسيرة في أثناء الكتاب فلما عرضتها عليه اغتمّ لهذا واهتمّ، وطلب مني إخطار الطابع بهذه التنبيهات، فلما أخبرته فإذا به قد قطع مراحل كثيرة في طباعة الكتاب واضطررنا إلى إتلاف النسخ المطبوعة وإعادة الطباعة مرة أخرى».

كما كان يشاركنا في مراجعة بعض كتبه كأجزاء من شرحه للنسائي ـ وكانت بخط الآلة الكاتبة ـ الشيخُ منصور بن سعيد بن رشيد النعماني، والشيخُ محمد حسان الشرعبي، والشيخُ براء أورفلي، وغيرُهم.

وقد أخبرني ابن الشيخ أخونا عبد الجليل أن بعض الجيران

---

(١) هذه أبيات مشهورة في الزهد وتنسب لأبي العتاهية، إلا أنها غير موجودة في ديوانه، والله أعلم.

بالهنداوية كانوا يتعجّبون من صدور صوت الضرب على (الآلة الكاتبة) في الساعة الثالثة قبل الفجر من غرفة والده القريبة من الشارع، وكانت عادته اليومية آنذاك أن يكتب عليها بعد قراءة ورده من القرآن الكريم.

وأخبرني الشيخ محمد المعتز أن بعض الأجزاء الأولى من شرح النسائي كتبها بيده رَحِمَهُ اللَّهُ، ثم لما شرع في الكتابة على الحاسوب كتب به أضعاف ما كتب بيده، وكان يقول: أحمد الله كثيرًا على نعمة الحاسوب، وكأنه صُنع لي!.

ومرة قلت له مداعبًا: شيخنا يكون لي الشرف لو جلسنا لتحسين الخط، فرد عليّ ضاحكًا: أغناني الله بخط الكمبيوتر!.

وقد يكون من نافلة الحديث الإخبارُ بأن الشيخ محمدًا أُلِينَ له النظمُ من بحر الرجز، حتى يقول جليسُه: ما أكثرَ ما أنجَز في وقتٍ موجَز!.

وكان يقول لنا إذا سألناه: نظمتها لتسهيل العلم لمن يريد حفظه؛ لأن حفظ النظم أسهل بكثير من حفظ النثر كما هو مشاهد.

وكثيرًا ما كنا نشاهده في مكتبه وهو يقرض الأراجيز العلمية، وأنامل يديه تتسارع وتتحرك بعجل على لوحة المفاتيح!.

بل أخبرني ابنه أنه رَحِمَهُ اللَّهُ نظم بعض المنظومات في السيارة، وأحيانًا كان يطلب منه أوراقًا لتقييدها!.

وحدثني الشيخ محمد المعتز وغيره أن الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ لما قرأ بيت الإمام السيوطي في آخر ألفيته في المصطلح:

نظمتها في خمسة الأيام بقدرة المهيمن العلام

قال الشيخ مستكثرًا عدد الأيام: خمسة أيام كثيرة!.

يقول أخونا الشيخ إبراهيم شلبي: «وكنت أتعجب من قلّة احتفائه

بما عَدَّه السيوطي كرامةً له، حتى ذكر لي الشيخ ـ ذات مرة ـ أنه نظم أرجوزته «البهجة المرضية في نظم المتممة الآجروميّة» والتي تقع في (٧٦٢) بيتًا في يومين فقط، وراجعها في يومين آخرين! فلله درّه».

ويقول الشيخ أبو محمد مدهير جابي ـ وكان من زملاء الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ في معهد الحرم والدار ـ: أتذكر موقفًا لا أنساه أبدًا، كنت جالسًا مع الشيخ محمد رَحِمَهُ اللَّهُ في معهد الحرم؛ فأرسل مدرس الحديث طالبًا ليحضر له كتاب المصطلح للتأكد من الصحابة السبعة المكثرين؛ فقال لي الشيخ محمد: المسألة سهلة، ثم ذكر لي أبياته التي اشتهرت لاحقًا:

المكثرون في رواية الخبرْ ... من الصحابة الأكارم الغُرَرْ
أبو هريرة يليه ابنُ عمر ... فأنسٌ فزوجةُ الهادي الأبرّ
ثم ابنُ عباسٍ يليه جابرُ ... وبعده الخدريُّ فهْو الآخرُ

ذكر لي شيخنا الفقيه عبد العزيز علي العجمي، أنه قبل تعيين الشيخ محمد مدرسًا بالدار عام ١٤٠٨هـ قابله الشيخ إدريس محمد علي رَحِمَهُ اللَّهُ[1] وبيده أوراق؛ فقال له متعجّبًا: هذه منظومة علمية في نوع من أنواع الحديث وهو التدليس، نظمها هذا الطالب ـ يقصد الشيخ محمدًا ـ وكان في الصف الثالث الثانوي من الفصل الأول!.

ثم أخذها الشيخ عبد العزيز وقرأها وأُعجب بها حقًّا، وقال: تمنيت أن يكون هذا الناظم مدرسًا معنا.

قلتُ: قد حقق الله هذه الأمنية وغدَا مدرسًا أكثر من ثلاثة عقود، وقد نظمها وهو طالب وشرحها وهو مدرس!

---

(١) هو الشيخ الفاضل العالِم الدكتور إدريس محمد علي، أحد مشايخ الدار القدامى، وقد درّس فيها بعض الكتب الستة والمصطلح والتفسير وغيرها، كما درّس رَحِمَهُ اللَّهُ في بعض الجامعات بدولة الإمارات العربية المتحدة واليمن.

والمقصود منظومته المسماة بـ (الجوهر النفيس في نظم أسماء ومراتب الموصوفين بالتدليس) نظمها سنة ١٤٠٥هـ، وعدد أبياتها (١١٨) بيتًا، قال رَحِمَهُ اللَّهُ في آخرها:

أبياتها بقدر عدّ السورِ ... معْ أربع يا رب عفوًا واغفرِ

اللّهم اعف عنه واغفر له.

ثم شرحها رَحِمَهُ اللَّهُ في رسالة أسماها (الجليس الأنيس في شرح الجوهر النفيس) سنة ١٤١٠هـ.

ومن طريف ما نظمه سريعًا في بعض المواقف التنبيهُ ببيتين على خطأ لغوي يقع فيه كثير من الطلاب، وهو قوله:

ولا تقل رَسَلني وراسِلُ ... كذاك مرسول فكل باطلُ

وإنما أرْسَلني ومرسِلُ ... ومُرسَل كذا رسول ينقلُ[1]

حرصه على الوقت

* حرصه ـ رحمه الله تعالى ـ على الوقت والاستشعار بأهميته أمر مشهود، وكأنه يتذكر دائمًا قول شوقي:

دقات قلب المرء قائلة له ... إن الحياة دقائق وثوان[1]

إنه ممن ينظر للوقت على أنه قيمة لا تعوض، وأن الإهمال فيها مدعاة للندم، ليس كنظرة عموم الناس بأنها سويعات تقضى وتقطع بحداء الركبان ابتغاءَ التنفيس.

أذكر مرة عندما كان الشيخ مدعوًّا لمناسبة بعد درس العشاء ـ وكان من عادته رَحِمَهُ اللَّهُ مع معارفه أن يشترط لتلبية الدعوة عدم تأخر المضيف فيما دعي إليه؛ فلما تأخر العَشاء ـ وهو تأخر معقول وارد ـ تمتم الشيخ بكلمات أذكرها حتى هذه اللحظة.. عبارات تدل على استشعار عميق لقيمة الوقت، ثم قال: (لو كنت في بيتي لكتبت بعض الصفحات!)، وكان يسترجع وكأن مصيبة ألمّت به!.

إنهم العظماء عندما يرون ما لا يراه جمهور الناس!.

وَمَن تَكُنِ الْعَلْيَاءُ هِمَّةَ نَفْسِهِ ... فَكُلُّ الَّذي يَلْقَاهُ فيها مُحَبَّبُ
إذا أَنا لَمْ أُعْطِ الْمَكَارِمَ حَقَّها ... فلا عَزَّنِي خالٌ، ولا ضَمَّنِي أَبُ[2]

---

(١) من الشوقيات (٢/ ١٢٣).

(٢) جواهر الأدب في أدبيات وإنشاء لغة العرب (٢/ ٢٧٨)، في الأدب الحديث (١/ ١٨٠). والبيتان من قصيدة للشاعر محمود سامي البارودي.

وقد ذكر لي ابنه أن أحد الإخوة دعاه إلى وليمة عرس، فسأله: هل القصر له بابان (دخول وخروج)؟ ثم قال له: سآتيك، ويلبي دعوته فيسلم عليه ويدعو له ثم يستأذن.

وكثيرًا ما كان يفعل ذلك حتى لا يقع في حرج مع الناس، كما أخبرني بعض أقاربه.

بل إنه ـ رحمه الله تعالى ـ في زواج ابنه عبد الجليل، بعد أن استقبل المدعوين وتناول معهم العشاء الساعة الحادية عشرة انصرف إلى بيته مع أحد الطلاب، وكان يردد أحيانًا إذا خرج من مناسبة ـ كما أكد لي بعض مرافقيه ـ: هذه المناسبات تعطلنا عن قيام الليل والكتابة[1]!.

(١) وله رَحِمَهُ اللَّهُ في الاعتذار عن مناسبات الولائم ونحوها مواقف كثيرة؛ لأنه رَحِمَهُ اللَّهُ رأى أن معظمها في الواقع يسبب تأخيرًا عن تدارك بعض مهماته ـ كما تقدم ـ ومن كان يحضر لمناسبته فإنه غالبًا يعلم حال الشيخ من طلب التبكير أو الاستئذان.

كتبه ومؤلفاته[١]

لا شك أن تصنيف الكتب الشرعية مِن أجلِّ الأعمال وأشرفها، وهي من وسائل صون العلوم الصحيحة وحفظها، وثمرة هذه المؤلفات تمتدّ لأزمان وأجيال، وما صنفه العلماء يكون من الصدقات الجارية التي يلحقهم ثوابها وأجرها بعد مماتهم؛ فعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله ﷺ قال: **(إذا مات الإنسان انقطع عنه عمله إلا من ثلاثة: إلا من صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له)**[٢].

* ومؤلفاته الكبيرة رَحِمَهُ اللَّهُ قويمة في الأسلوب، رصينة في الطرح، شاهدة على إيثاره الدليل على الرأي، مع إبانة أفضل الأوجه فيما يظن فيه التعارض من الأدلة، ناقلًا أقوال العلماء في المسألة بتنسيق جميل يربط بين مباحث الموضوع الواحد، ملتزمًا فيه بمنهج ينبئك عن فهم عميق ونظر ثاقب مع تمكن في النظم الرائق والنثر الفائق[٣].

وخذ مثالًا على هذا شرحه لسنن النسائي (ذخيرة العقبى) والذي التزم فيه بهذا المنهج في أكثر من أربعين مجلدًا من الحجم الكبير، وغيره من مؤلفاته.

---

(١) استفدت في وصف كتبه رَحِمَهُ اللَّهُ والتعريف بها من مقدماتها، ومما أفادني به الإخوة الفضلاء: الشيخ حبيب صبور، والشيخ محمد المعتز، والشيخ جاسم محمد مبارك، وغيرهم، وكذلك من موقعه رَحِمَهُ اللَّهُ.

(٢) صحيح مسلم (٣/ ١٢٥٥)، حديث رقم (١٦٣١).

(٣) كان ـ رحمه الله تعالى ـ يضع أسماء مؤلفاته وعناوينها بدقة، ويراعي فيها السجع كعادة كثير من العلماء والمصنفين، ربما أشار إلى الفن المؤلف فيه الكتاب.

وبما أن الشيخ ـ رحمه الله تعالى ـ متبحر في أنواع من العلوم، ومتفنن في ألوان من الفنون تمكن ـ بتوفيق الله وعونه ـ أن يجود على الأمة بكم هائل من المؤلفات المتنوعة؛ في التوحيد وعلوم الحديث، والأصول، وعلوم اللغة وغيرها نثرًا ونظمًا، وهذا يدلّك على سَعَة علمه وغزارة إنتاجه، خصوصًا إذا علمنا أن تآلِيفَه الكبار قد أمضى في بعضها أكثر من عشر سنوات حتى أنجز وحقق الهدف الجليل.

ولا يُستغرب منه ومن أمثاله هذا الإنجاز؛ فإن الله بارك لأولئك العلماء في أوقاتهم وأعمارهم؛ لأن هذا من تمام حفظه للدين، وإقامته الحجة على الناس.

يقول الشيخ عمير التيمي: استغرق معنا شرح الشيخ د. عبد الكريم الخضير، لأول ستة أحاديث من صحيح الإمام البخاري أربع سنوات ونصفًا، ثم قال لنا: أعجب والله من همة الشيخ محمد بن علي آدم الإتيوبي، كيف بارك الله في أوقاته ودروسه وأنجز هذه الشروح العظيمة! لكنه توفيق الله ورعايته[1].

* ويتمّ في هذا المقام ذكر أبرز مؤلفات الشيخ ﷾ ومنظوماته، مع التعريف بها وإظهار بعض مزاياها:

✿ التوحيد والعقيدة:

ـ الدرة المضية في نظم توحيد ربّ البرية (ألفية التوحيد)، منظوم من الرجز.

ـ المنة الرضية شرح الدرة المضية:

هذا شرح لألفيته المذكورة (الدرة المضية في نظم توحيد ربّ

(١) ذكره في حسابه على تويتر.

البرية)، والتي تناولت مهمات علم التوحيد ومقدماته، وبيان معتقد أهل السُّنَّة والجماعة وخصائصهم، ومنهج التلقي والاعتصام بالكتاب والسُّنَّة، وحقيقة الإيمان بالله، وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، والإيمان بالقضاء والقدر، مع بيان نواقض الإيمان وغيرها من المباحث المتعلقة به.

وصاغها رَحِمَهُ اللَّهُ بعبارات سهلة وترتيب تدريجي في أسلوب واضح بعيدًا عن التعقيد وألفاظ المتكلمين، وأصل النظم مقتطف من كتاب الشيخ محمد يسري، وأشار إلى ذلك بقوله:

اقتطفت من درة البيان ... لبعض أهل العلم والعرفان
أجاد في الجمع وفي النسق وقد ... استوجب الثنا ودعوة تمد

وقد طبع الشرح في مجلد واحد.

ـ إتحاف أهل السعادة بمعرفة أسباب الشهادة (منظوم).

ـ بغية طالب السيادة شرح إتحاف أهل السعادة:

وهذا شرح مختصر لنظمه المذكور (إتحاف أهل السعادة بمعرفة أسباب الشهادة) الواقع في (٥٦) بيتًا من الرجز، جمع فيه رَحِمَهُ اللَّهُ أسباب نيل الشهادة والأحاديث الواردة فيها، معتمدًا على كتاب السيوطي رَحِمَهُ اللَّهُ (أبواب السعادة في أسباب الشهادة).

❁ الحديث وعلومه:

ـ قرة عين المحتاج في شرح مقدمة صحيح مسلم بن الحجاج:

هو شرح مفصّل مفيد جدًّا يقع في مجلدين لمقدمة الإمام مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري رَحِمَهُ اللَّهُ في حل ألفاظها وبيان معانيها وإتمام مقاصدها، تقرّ به عيون المحتاجين من روادها، فلا تطمح إلى غيره غالبًا؛ بل تأخذ منه جل مرادها ـ كما قال الشارح رَحِمَهُ اللَّهُ ـ.

ـ البحر المحيط الثجاج في شرح صحيح الإمام مسلم بن الحجاج:

وهو شرح عظيم حافل بالفوائد الحديثية والفقهية واللغوية وغيرها، ويقع في خمسة وأربعين مجلدًا.

قال مؤلفه رَحِمَهُ اللَّهُ في مقدمته: فلمّا يسّر الله تعالى لي بفضله شرح مقدّمة صحيح الإمام مسلم رحمه الله تعالى، شرحًا مطوّلًا مستوعبًا لمقاصدها، ومحتويًا على فوائدها، ويسّر الله تعالى طبعه، ونشره بين أهل العلم، أحببتُ أن أتطفّل بإلحاق ذلك بشرح صحيحه كاملًا، شرحًا يستوفي مقاصده، ويحوي فوائده، ويستوعب مباحثه، ويزيل ملتبساته، ويفتح مقفلاته، ويبيّن ما تضمّنه من أنواع العلوم، وأسرار الفهوم، ويوضّح ما وقع فيه من المشكلات الإسناديّة، أو المتنيّة، وغير ذلك من المطالب التي هي من أهمّ المهمّات لطلّاب العلم، ولا سيّما طلّاب الحديث، مستمدًّا ذلك من فيض فضل الملك الوهّاب، ومقتبسًا من كلام أولي الألباب، من جهابذة أهل الحديث.

ثم قال رَحِمَهُ اللَّهُ: ولا أريد أن أُطيل بوصفه البيان؛ بل أكتفي بِلَمْحَةِ البنان، فإن الذَّكِيَّ يَفْهَمُ بأدنى إشارة، ما لا يَفهَمه الغبيّ بألف عبارة، والبليدُ لا يفيده التطويل، ولو تُلِيَت عليه التوراة والإنجيل، والمشاهدة أعلى من الشهادة، وأقوى الوسائل في الإفادة.

ـ إتحاف الطالب الأحوذي بشرح جامع الإمام الترمذي:

هو شرح كبير نافع جدًّا لجامع الإمام الترمذي رَحِمَهُ اللَّهُ، ولم يُتِمَّه، شرع فيه شهر شوال من عام ١٤٣٢هـ، وسلك فيه منهجه الذي اتبعه في شرح النسائي وشرح مسلم من التفصيل في المباحث الحديثية والإسنادية واللغوية وغيرها، والمطبوع منه واحد وعشرون مجلدًا حتى كتابة هذه الأسطر.

ـ ذخيرة العقبى في شرح المجتبى أو غاية المنى في شرح المجتنى:

هذا شرح عظيم جليل لسنن الإمام النسائي (الصغرى)، له اسمان ـ كما هو ظاهر ـ ويقع في اثنين وأربعين مجلدًا، وهو أول مصنف موسّع له، واستفتح به شرح الكتب الستة، وقد أطال في مباحثه ومسائله وموضوعاته، مع ترتيب رائق وأسلوب فائق، وهمته مع هذا الكتاب كانت متقدة، ورحلته معه شاهدة على جَلَد منه عظيم.

وقد استهلّ شرحه بمقدمة طويلة جاءت في أكثر من مائة وسبعين صفحة، وأمضى فيه رَحِمَهُ اللَّهُ نحو خمسة عشر عامًا؛ حيث انتهى منه سنة ١٤٢١هـ.

ـ مشارق الأنوار الوهاجة ومطالع الأسرار البهاجة في شرح سنن الإمام ابن ماجه:

هو شرح لكتاب من الكتب الستة، والذي لم يظفر بشرح يروي الغليل ويجدر بمنزلة هذا الكتاب، إلا أنه لم يكتمل، ووقف فيه عند الحديث (٢٦٦)، ويقع في أربعة مجلدات[1].

قال رَحِمَهُ اللَّهُ في مقدمته: غير أنه لم يقم أحد بشرحها شرحًا وافيًا بمقاصدها، ومستوعبًا لمباحثها، ومزيلًا لملتبساتها، وفاتحًا لمقفلاتها، ومبيّنًا ما تضمّنته من أنواع العلوم، وأسرار الفهوم، وموضّحًا ما وقع فيها من الأحاديث الواهية، وغيرها من المطالب التي هي من أهمّ المهمّات لطلّاب العلم، ولا سيّما طلّاب الحديث، وقد كتب كثيرون من فضلاء

(١) حدثني أخونا الشيخ عبد الله شلبي قال: «قلت للشيخ محمد رَحِمَهُ اللَّهُ: إن ابن ماجه لم يُخدم كالترمذي، وفيه غرائب أكثر مما في الترمذي؛ بل ما في الترمذي من الغرائب قليل، بخلاف أحاديث ابن ماجه فهي تحتاج لشرح حديثي محرر، فقال: إن شاء الله نعود إليه، إلا أن الأجل سبقه رَحِمَهُ اللَّهُ».

المتقدّمين والمتأخرين عليها تعليقات لا بأس بها؛ لكنها قطرات لا تُروي الغليل، ولا تشفي العليل؛ فأحببت أن أتشرّف بخدمتها حسب الطاقة، بشرح متّصف بالأوصاف السابقة، تتجلّى فيه معاني الأحاديث باسقة، متحلّية بحلل جواهر أهل الحديث، ممن أسهموا في خدمة هذا الفنّ في القديم والحديث.

ـ قرة العين في تلخيص تراجم رجال الصحيحين:

هذا الكتاب ألّفه رَحِمَهُ اللَّهُ عام ١٤١٣هـ، وهو في تراجم رجال الصحيحين ـ كما هو ظاهر من عنوانه ـ، وقد ذكر في مقدمته أنه لخصه ليكون مُعينًا له على حفظ تراجم الرواة، وكان قبلُ يكتبها في أوراق غير مُرتبة؛ لهذا ألّف هذا الكتاب وقال: فجمعت هذه العجالة لتكون ـ بعون الله تعالى ـ معينة على حفظ تراجم الرجال لي، ولمن هو قاصر مثلي.

وكتابه يُعدّ ملخصًا لكتاب الحافظ ابن طاهر المقدسي، وكتاب الحافظ أبي بكر أحمد بن علي الأصفهاني، ومن كتب الرجال المعروفة كتهذيب التهذيب وتقريبه وغيرها.

وسلك في سرد الترجمة طريقة الحافظ ابن حجر في تقريبه؛ فقد جعل ترجمة كل راوٍ في حدود سطر ونصف غالبًا، وقد طُبع غير مرة في مجلد واحد.

ـ البحر المحيط الأزخر في شرح نظم الدرر في علم الأثر.

ـ إسعاف ذوي الوطر في شرح نظم الدرر:

وللشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ شرحان على ألفية السيوطي:

كبير وهو المذكور آنفًا المسمى: (البحر المحيط الأزخر في شرح نظم الدرر في علم الأثر) ولم يتمّه.

وصغير وهو المسمى: (إسعاف ذوي الوطر في شرح نظم الدرر) المطبوع في مجلدين.

وقد قال رَحِمَهُ اللَّهُ في مقدمته:

فقد كنت شرعت في شرح المنظومة المسماة (نظم الدرر في علم الأثر) للحافظ السيوطي... شرحًا وسطًا؛ غير أن الاشتغال بأشغال تعوقني عن مواصلة السير على منهجه أحوجني لصرف عنان العزم نحو اختصاره، مسدّدًا الأنظار في ترصيف اقتصاره، تعجيلًا للمنفعة الهامّة، وتحقيقًا للمسرة العامّة، واللهَ أرجو في تسهيل ما أمّلته من الشرحين، من غير فتور ولا شَين؛ إنه وليّ ذلك، وهادي السالك.

ـ إتحاف ذوي الوطر بشرح بهجة الدرر في نظم نخبة الفكر:

وهو شرح لمنظومة شيخه عبد الباسط المناسي المسماة (بهجة الدرر في نظم نخبة الفكر)، وطُبع في جزء واحد.

ـ شافية الغُلَل بمهمات علم العِلَل (ألفية في علل الحديث، منظوم).

ـ مزيل الخَلل عن أبيات شافية الغُلَل:

هذا شرح موجز لألفيته المذكورة (شافية الغُلَل)، وعدد أبياتها (١١٠٩) من الرجز، واستخلص فيه رَحِمَهُ اللَّهُ ما ذكره الإمام الترمذي في (علله) والإمام ابن رجب في (شرحه لعلل الترمذي)، وزاد عليهما ما رآه مناسبًا من كلام أهل العلم.

ـ الجوهر النفيس في نظم أسماء ومراتب الموصوفين بالتدليس (منظوم).

ـ الجليس الأنيس في شرح الجوهر النفيس:

هو شرح صغير لنظمه السابق المذكور (الجوهر النفيس في نظم أسماء ومراتب الموصوفين بالتدليس) الواقع في (١١٨) بيتًا من الرجز،

وقد وضّح في هذا الشرح المباحث المتعلقة بالتدليس والمدلسين وأنواعهم، وهو نظم لكتاب (تعريف أهل التقديس بمراتب الموصوفين بالتدليس) للحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ.

ـ تذكرة الطالبين في بيان الموضوع وأصناف الوضّاعين (منظوم).

ـ الجليس الأمين شرح تذكرة الطالبين في بيان الموضوع وأصناف الوضّاعين:

وهو شرح مختصر في حدود أربعين صفحة على نظمه المذكور (تذكرة الطالبين في بيان الموضوع وأصناف الوضّاعين) الواقع في (١٥٠) بيتًا من الرجز، وذكر رَحِمَهُ اللَّهُ أن أصل نظمه هذا وشرحه كتاب (تنزيه الشريعة المرفوعة عن الأخبار الشنيعة الموضوعة) للعلّامة ابن عراق الكناني.

ـ مواهب الصمد لعبده محمد في أسانيد كتب أهل العلم الممجد:

وهو جزء جمع فيه رَحِمَهُ اللَّهُ إجازاته وأسانيده المتصلة إلى الأعلام والكتب، مطبوع في جزء صغير.

ـ مجمع الفوائد ومنبع العوائد بذكر الأثبات والأسانيد (مخطوط).

ـ عُمدة المحتاط في معرفة من رُمي من الثقات بالاختلاط (منظوم).

ـ عُدّة أولي الاغتباط في شرح عُمدة المحتاط:

هذا شرح لمنظومته (عُمدة المحتاط في معرفة من رُمي من الثقات بالاختلاط) الواقعة في (١٣٠) بيتًا من الرجز، وقد تناول فيهما معنى الاختلاط مع بيان حكمه، وذكر الرواة الثقات الذين رُمُوا بالاختلاط على ترتيب حروف المعجم وعددهم (١٠٣) رُواة، معتمدًا على كتاب (الكواكب النيّرات في معرفة من اختلط من الرواة الثقات) لابن الكيّال، وقد طُبع في مجلد واحد.

ـ إتحاف النبيل بمهمات علم الجرح والتعديل (منظوم).

ـ إيضاح السبيل في شرح إتحاف النبيل بمهمات علم الجرح والتعديل:

وهو كتاب شَرَحَ فيه نظمه المذكور (إتحاف النبيل بمهمات علم الجرح والتعديل) الواقع في (٧٠٠) بيت[١]، وأصل النظم كتاب (ضوابط الجرح والتعديل) للشيخ عبد العزيز العبد اللطيف رَحِمَهُ اللَّهُ[٢].

وقد حلّ في شرحه ما يُستغرب من مبانيه، ووضّح ما يُستصعب من مبانيه ـ كما قال رَحِمَهُ اللَّهُ في مقدمته ـ، وكتبه بأسلوب واضح وعبارات سهلة، وطُبع في جزء واحد.

ـ نظم الأحاديث المتواترة (مفقود).

ـ رفع الغين في ثبوت زيادة وبركاته في التسليم من الجانبين (رسالة مطبوعة قديمًا).

❁ الفقه وأصوله:

ـ الجليس الصالح النافع بتوضيح معاني الكوكب الساطع نظم جمع الجوامع في أصول الفقه:

هذا شرح نافع وضعه الشيخ على نظم الإمام السيوطي المسمّى (الكوكب الساطع نظم جمع الجوامع)، وقد أضفى إليه رَحِمَهُ اللَّهُ من علوم

---

(١) وزاد رَحِمَهُ اللَّهُ في الشرح نحو عشرة أبيات.

(٢) وقد اقترح عليه ـ رحمه الله تعالى ـ بالنظم في مهمات علم الجرح والتعديل أخونا الشيخ محمد المعتز. وكان رحمه الله تعالى يعيش مع طلابه فيلبي لهم ما يحتاجونه في تيسير بعض العلوم والمسائل، ومثله تلبيته لطلب الشيخ ذياب الغامدي في نظم متممة الأجرومية، وطلب الشيخ سالم العماري في نظم ألفية التوحيد، وطلب الشيخ إبراهيم بن راجح القصاري نظم من لا يروي إلا عن ثقة، وطلب الشيخ حبيب صبور نظمًا في الآداب؛ فنظم (منهج الطلاب لتحصيل الآراب)، وطلب منه أخونا الشيخ إبراهيم شلبي نظم قواعد التفسير فأعجب بذلك، وطلب منه كتاب «قواعد التفسير للشيخ خالد السبت، فعزم على نظمه؛ لكن لم تسعفه الصحة، وحان الأجل دون تحقيق ما أراد».

أصول الفقه ومسائله ما استفاده من شرح الناظم وشرح العلّامة المحلّي وغيرهما من علماء الأصول.

ـ التحفة المرضية في نظم المسائل الأصولية على طريقة أهل السُّنَّة السنية:

ـ المنحة الرضية في شرح التحفة المرضية في نظم المسائل الأصولية:

هو شرح واضح لطيف على المنظومة السابقة المسماة (التحفة المرضية في نظم المسائل الأصولية على طريقة أهل السُّنَّة السنية)، وهي منظومة طويلة من بحر الرجز، عدد أبياتها (٣٠٧٤) بيتًا، واعتمد فيها على كتاب (معالم أصول الفقه عند أهل السُّنَّة والجماعة) للشيخ محمد بن حسين الجيزاني ـ جزاه الله خيرًا ـ.

وقد ذكر فيها معظم المسائل الأصولية التي لا يستغني عنها طالب علم الأصول، وانتهج فيها رَحِمَهُ اللَّهُ طريقة أهل السُّنَّة والحديث بعيدًا عن آراء المتكلمين ومصطلحاتهم قدر المُستطاع، مستفيدًا فيما يقرّر من كلام ونقولات السلف، وعلى رأسهم الإمام الشافعي، كما استفاد من كتب ابن تيمية وابن القيم وغيرهم ـ رحمهم الله ـ، وقد تميّز هذا النظم ـ مع طوله ـ بكونه سهلًا رائقًا.

وقد طُبع الشرح في ثلاثة مجلدات.

ـ الدرة المحبرة في وجوه الترجيحات المحررة.

وهي نظم للمرجحات في الأدلة التي ظاهرها التعارض، وشيخنا ضمنها ما نقله العراقي عن الحازمي من وجوه الترجيحات الخمسين، ثم زاد عليها العراقي ستين وجهًا، ثم جاء شيخنا فنظمها في (١١٠) أبيات.

ـ نظم مختصر في علم الفرائض (مفقود).

ـ إتحاف ذوي الهمة بمسائل مهمة (مخطوط):

وهو جزء فقهي صغير جمع فيه رَحِمَهُ اللَّهُ بعض المسائل الشرعية كمسألة القيام للقادم، وتقبيل اليدين، ونحوها من المسائل.

❁ اللغة العربية وعلومها:

ـ البهجة المرضية في نظم متمِّمَة الآجرومية لتقريب المسائل النحوية (منظوم).

ـ المنة الرضية شرح البهجة المرضية:

هذا شرح متوسط لمنظومته المذكورة (البهجة المرضية في نظم متمِّمة الآجرومية لتقريب المسائل النحوية)، الواقعة في (٧٦٢) بيتًا من الرجز، نظم فيها الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ متمِّمَة الآجرومية للشيخ الرُّعَيني، بدأها بالكلام والكلمة وأقسامها، وختمها بباب الوقف. علمًا بأن الشيخ ضمنها بعض الأبيات من ألفية ابن مالك، وتضمّن الشرح فوائد ولطائف لغوية استقاها من كتب النحو.

وطبع في جزء واحد.

ـ فتح الكريم اللطيف شرح أرجوزة التصريف:

هو شرح لطيف ـ كما سمّاه الشيخ ـ، وضعه على أرجوزة التصريف التي نظمها شيخه العلّامة عبد الباسط البورني المناسي، الواقعة في (٧٧٠) بيتًا من الرجز، مع تحقيق المسائل وإصلاح أبيات الناظم في مواطن، وطُبع الشرح في مجلد.

ـ نظم شافية ابن الحاجب، في علم الصرف، لم يكمل (وهو مفقود).

ـ فتح القريب المجيب شرح مدني الحبيب نظم مغني اللبيب:

وهو شرح نافع ماتع لمنظومة شيخه العلّامة عبد الباسط

المناسي رَحِمَهُ اللَّهُ المسمّاة (مدني الحبيب نظم مغني اللبيب) وعدد أبياتها (٢٢٧٦) بيتًا، وهي نظم لكتاب (مغني اللبيب عن كتب الأعاريب) للإمام ابن هشام رَحِمَهُ اللَّهُ.

وقد جاء الشرح مبيّنًا وموضّحًا لما تضمّنه نظم شيخه بأسلوب رصين مع إعراب الأمثلة والشواهد، وتحقيق المسائل ومناقشة أعلام النحو، مع إصلاح لبعض أبيات الناظم واستدراك ما فاته من مسائل المتن نظمًا، وقد طُبع في مجلدين.

- نظم خاتمة المصباح، في التصريف، ولم يتمه (مخطوط).

- شرح عقود الجمان، في البلاغة، لم يكمله (مخطوط).

- رجز في علمي العروض والقوافي (نظم مفقود).

❁ فنون متفرقة:

- الفوائد السمية في قواعد وضوابط علمية:

كتاب نافع ضمّنه عددًا من الفوائد في فنون مختلفة في الحديث والفقه واللغة، بجانب بعض المقطوعات الشعرية، وقد طبع منه جزءان.

- جامع الفوائد وضابط العوائد (مخطوط).

- نظم رسالة علوم التفسير لابن تيمية، لم يكمل (مخطوط).

- منهج الطلاب لتحصيل الآداب.

وهو نظم في آداب طالب العلم وآداب العالم والآداب المشتركة بينهما، وقد اقتطفها من مقدمة المجموع للإمام النووي رَحِمَهُ اللَّهُ، وبلغ عدد أبياتها (٣٠٠) بيت.

محفوظاته وطريقة معاهدته لها

الشيخ محمد رَحِمَهُ اللَّهُ تمتع بصفات فريدة وهبه الله إياها، فاستثمرها أفضل استثمار في خدمة العلم وأهله، من أبرزها:

الفهم والإدراك السريع للمسائل، وسرعة الحفظ؛ فقد وهبه الله الكريم ذاكرة عجيبة، وحافظة سريعة، وذهنًا وقّادًا، وقد ساعده ذلك على استحضار المسائل وأدلتها وشواهدها النثرية والشعرية عند طرح الأسئلة ومناقشتها، وهذا أمر شهده من جالسه أو لازم دروسه.

ولا ريب أن ذلك موهبة إلٰهية، والبركة في حياة العلماء والصالحين من السلف الصالح ومن بعدهم واردة، وأثر الإخلاص والتقوى لله تعالى نافع في ذلك بلا شك، ونحسب أنه رَحِمَهُ اللَّهُ كان على قدر كبير من ذلك، ولا نزكي على الله أحدًا.

والشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ لا يخبر الناس بمحفوظاته ابتداءً؛ إلا إن وردت مناسبة خاصة مع بعض طلابه؛ كإخباره استطرادًا للشيخ محمد المعتز بأنه يحفظ صحيح البخاري لما استشاره في حفظ بعض كتب الحديث؛ بل قال له: عليك بالأصل!

وكان يتأسف قائلًا: لا أجد وقتًا لمعاهدة الحفظ؛ وذلك لانشغاله بالتأليف والتدريس.

وكان بعض زملائنا من مدرسي الدار يقرأ عليه في الصحيحين غيبًا، وبلغ معه إلى كتاب العلم من صحيح البخاري، وكان رَحِمَهُ اللَّهُ يفتح

عليه من حفظه إن أخطأ في الأسانيد والمتون[١].

ومعروف عنه ـ رحمه الله تعالى ـ التوصية بحفظ القرآن الكريم قبل حفظ المتون، وكان يستغرب كثيرًا عندما يرى طلاب العلم في الحبشة يعتنون سابقًا بحفظ الكتب والمتون ولا يهتمون بحفظ القرآن، وذلك قبل انتشار حلقات تحفيظ القرآن.

وقد أخبرني بعض أقاربه وأبنائه أنه تعجّب من هذا الوضع فقال: عندهم قدرة على حفظ فتح الباري ولا يحفظون القرآن!

كان رَحِمَهُ اللَّهُ مولعًا بالحفظ حتى بعد أن جاوز الخمسين من عمره، وقد أخبرَنا غيرَ مرة أنه ألزم نفسه بجدول يومي لحفظ تراجم الرواة على الطريقة التي سلكها في كتابه (قرة العين في تلخيص رجال الصحيحين) وهو الذي قال في مقدمته[٢]:

(إنما لخصت هذه العجالة لأني كنت أكتب التراجم في أوراق مبعثرة؛ لأحفظها فتضيع تلك الأوراق، فأحتاج لكتابتها مرة أخرى، فجمعت هذه العجالة لتكون ـ بعون الله تعالى ـ معينة على حفظ تراجم الرجال لي، ولمن هو قاصر مثلي ممن له رغبة في الالتحاق برجال أهل الحديث، وتطلع إلى نيل ما وصلوا إليه في القديم والحديث).

وقد أخبرني غير واحد ممن رافقه في التنقلات وبعض الأسفار أنه غالبًا يستثمر مسافة الطريق في قراءة القرآن أو تكملة ورده اليومي من القرآن حفظًا[٣].

وعلمت من أخينا الشيخ عبد الله بن سعيد القحطاني ـ وهو إمام

---

(١) حدثني بهذا أخونا الشيخ منير محمد إبراهيم والشيخ عبد الله بن سعيد القحطاني، كلاهما عنه رَحِمَهُ اللَّهُ.

(٢) (ص١٢).

(٣) ذكر لي ذلك مع مواقف أخر كل من: الشيخ محمد المعتز، والشيخ إبراهيم راجح، والشيخ منير محمد إبراهيم، والشيخ جاسم محمد مبارك، وبعض أبنائه.

وخطيب بأحد مساجد الرياض ـ أنه وبعض طلبة العلم رافقوا الشيخ في عودته من الرياض إلى مكة، قال:

فذهبت أنا ـ ومعي نحو خمسة من الإخوة ـ فكان الشيخ يقرأ ما يُفيدنا من صحيح البخاري غيبًا، وكان يقرأ ويسرد الأبواب والأحاديث والفوائد من حفظه غيبًا، والإخوة يُتابعون معه من الكتب، وكنت أقود السيارة.

وقال: أذكر في هذه الرحلة أن الشيخ أصابته إغفاءة فنام، ولم أنتبه لذلك؛ لأني كنت أقود السيارة، فلما انقطع صوته أردت أن أنبّهه، فأشار إليّ أحد الإخوة، وعندما نظرت إلى المرآة وجدته نائمًا فعلًا.

كان وقتًا يسيرًا ثم أخذ الشيخ يُكمل ما توقّف عنده ـ هذه رأيتها مع الإخوة الذين كانوا معي ـ، فبدأ يسرد الأبواب والأسانيد والأحاديث والفوائد!.

قلت للشيخ بعد ذلك: يا شيخ محمد، قد نمت! فقال: وإن عادت عُدنا! فضحكنا.

ذكر لي أخونا الشيخ حبيب صبور قال: أذكر في أيام الثانوية لما غاب الطالب الذي كان يأتي بكتاب فتح الباري يومًا، والذي يقرأ منه شيخنا؛ فانتظر ـ رحمه الله تعالى ـ هُنيهة حتى ذهب بعض الوقت، ثم استفتح الدرس وساق بإسناده حفظًا من طريق والده إلى الإمام البخاري ـ رحمه الله تعالى ـ أول حديث في الصحيح، ثم قال: وبه إليه قال الإمام الحافظ الحجة البخاري ـ رحمه الله تعالى ـ: كتاب الأدب ـ باب: البر والصلة. وقول الله تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا﴾ [العنكبوت: ٨].

حدثنا أبو الوليد: حدثنا شعبة قال: الوليد بن عيزار قال: سمعت أبا عمرو الشيباني يقول: أخبرنا صاحب هذه الدار، وأومأ بيده إلى دار عبد الله، قال: سألت النبي ﷺ: أي العمل أحب إلى الله؟ قال: **(الصلاة على وقتها)**. قال: ثم أي؟ قال: **(ثم بر الوالدين)**. قال: ثم أي؟ قال:

(**الجهاد في سبيل الله**). قال: حدثني بهن، ولو استزدته لزادني.

وهكذا بدأ يسرد الأبواب والأحاديث بأسانيدها من حفظه ـ رحمه الله تعالى ـ.

وقد أخبرني ابنه عبد الجليل أكثر من مرة أن الشيخ طلب منه بعد يوم عيد الفطر عام ١٤٣٢هـ أن يسافر به إلى المدينة، وإثر ركوبه وقراءة الأذكار والدعاء شرع في قراءة صحيح الإمام البخاري غيبًا مبتدئًا بذكر سنده من شيخه إلى قوله: قال: حدثنا الإمام البخاري حدثنا الحميدي عبد الله بن الزبير قال: حدثنا سفيان... وهكذا يقرأ كل حديث بسند البخاري حتى وصولنا إلى الفندق، فمكثنا ثلاثة أيام، ثم استأنف القراءة في طريق الإياب إلى مكة.

يقول أحد تلامذته من الرياض: حصل لنا موقف مع الشيخ ونحن على طريق سفر؛ فاستشهد الشيخ بباب من أبواب البخاري وسرده فقال: وذكر البخاري في كتابه كذا وكذا وكذا...!.

فقلت: سبحان الله! استحضار الشيخ أثناء النقاش حتى للتبويبات.

وكان الشيخ يعلّق على صحيح البخاري من حفظه واستمرّ على ذلك حتى دخلنا مكة.

وأحيانًا إذا استشاره بعض من يرى فيهم الجد والهمة أرشدهم إلى الأصول كالصحيحين، وقد سأله أحدهم في حفظ (بلوغ المرام) أو (عمدة الأحكام)، ونحو هذه الكتب؟

فقال: لا لا، هذه مختصرات، إذا أردت أن تحفظ فاحفظ الأصول: البخاري ومسلم والسنن[1].

ومما ذكره رحمه الله في بعض دروسه أنه كان يحفظ ألفية السيوطي في

(١) حدثني بهذا ونحوه الشيخ عبد الله بن سعيد القحطاني وغيره.

النحو، ويقول: إنها أغزر علمًا ومسائل من ألفية ابن مالك؛ ولكن الله كتب الانتشار والقبول لألفية ابن مالك.

وقد حفظ في صباه معظم ألفيات السيوطي المطبوعة (ألفية النحو، والمصطلح، والكوكب الساطع في الأصول، وعقود الجمان في البلاغة)[1].

وقد ذكر رَحِمَهُ اللَّهُ لبعض الإخوة أنه كان يحفظ ستة آلاف بيت، وقال: بقيت منها أربعة آلاف، وذهب ألفان[2].

واستشهاداته من ألفية المصطلح للسيوطي، ومن ألفية ابن مالك في النحو والصرف ظاهرة بكثرة في دروسه.

أما المتون الصغيرة كبلوغ المرام، والأربعين النووية، وملحة الإعراب، ولامية الأفعال، والآجرومية، ونظم العزي وغيره؛ فكثيرة.

وذكر لي نجله الشيخ عبد الجليل أن من عادة والده مراجعةَ وتكرارَ بعض محفوظاته من المنثور والمنظوم بعد صلاة الفجر قبل ذهابه للتدريس في الدار، وبعضها كان يراجعها في السيارة، ويستمع أحيانًا لبعض المتون والمنظومات العلمية مثل مقامات الحريري ونحوها من مسجل السيارة.

ويبدو أن تكراره وترداده لما يحفظه أمر اعتاد عليه منذ زمن كلما سنحت له فرصة أو وجد فراغًا بين أعماله رَحِمَهُ اللَّهُ.

قال لي شيخنا الفقيه الفاضل عبد العزيز علي العجمي ـ وهو من مدرسي الدار سابقًا ـ: كنا نسمع الشيخ محمدًا يردد بعض محفوظاته ومنظوماته التي يحفظها.

حقًّا مما امتنّ الله به عليه رَحِمَهُ اللَّهُ من صغره؛ سرعة الحفظ وثبات المحفوظ، وكان أقرانه في الحبشة ـ كما أخبرني بعض أقارب الشيخ

---

(١) أفادني بهذا بعض المشايخ، منهم: الشيخ محمد المعتز، والشيخ حبيب صبور، والشيخ عبد الله عوض.

(٢) ذكر ذلك لأخينا الشيخ سعيد أجالي ـ المدرس بدار الفائزين ـ.

وأبنائه ـ يستغربون من حفظه ويتعجبون حتى قال بعضهم: لا يجاريه أحد في الحفظ والفهم، وكان شيخهم عبد الباسط المناسي رَحِمَهُ اللَّهُ قد استخلفه في مدرسته مرتين.

وقد زاره بعض هؤلاء العلماء في بيته بمكة، فدارَ الحديثُ حول قوة حفظه أو أنه سأله؛ فقال له الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ: رأيت النبي ﷺ في المنام في صغري وهو يقرئني سورة الفاتحة ثم قال: وبعدها ما نظرت إلى صفحة إلا وأحفظها بيسر، ولا أجد في ذلك صعوبة!. فقال هذا العالم الزائر: هذا الذي فاقنا فيه الشيخ محمد، هذا هو السر!

وأخبرني أخونا الشيخ عبد الله عوض ـ المدرس بدار الحديث ـ قال: في إحدى المرات ونحن جلوس عند الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ بعد عودتنا للدروس بعد إجازة الحج، سأل الشيخ الطلبة الجالسين حوله قبل بداية الدرس بدقائق عن الفوائد التي استفادوها في الإجازة؛ فطأطأنا رؤوسنا، ثم سألني: وأنت يا عبد الله ما الفائدة التي استفدتها؟ فقلت: قرأت كتيبًا صغيرًا عن أدب الخلاف، ثم أخبرنا رَحِمَهُ اللَّهُ أنه حفظ في هذه الإجازة من ألفية العراقي في السيرة النبوية (٦٦٧) بيتًا، وكانت مدة الإجازة اثني عشر يومًا تقريبًا.

ثم سأله أحد الطلاب:

كم بيتًا تحفظ في اليوم يا شيخنا؟

فأجاب رَحِمَهُ اللَّهُ: أحفظ ستين أو سبعين بيتًا أثناء تناولي كأسًا من الشاي![1].

هذه بعض المواقف التي تُنبئك عن همة الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ وحُسن معاهدته لمحفوظاته العلمية.

وكان رَحِمَهُ اللَّهُ يدعو إلى ضبط المحفوظ ويقول: أستطيع أن أحفظ كل

(١) وقد أكده لي أخونا الشيخ عبد الله عوض مرارًا، ولهذا نقلته بنصه.

يوم مائة بيت؛ ولكن إذا حفظنا كل يوم مائة وبعده مائة وهكذا فمتى أضبطها كلها؟

وقد قيل:

وليس يخفى أنَّ ما قَلَّ وَقَرّ أولى وأحرى عن كثيرٍ منه فَرّ[1]

وكم هو جدير بطلبة العلم وشُداة المعرفة أن يسلكوا هذا المنهج، فيعتنوا بحفظ وضبط الأصول ليظفروا بالوصول إلى الهدف المأمول!

* ومن المواقف التي تدلّ على فهمه للمسائل واستحضار تفاصيلها ما ذكره لي شيخنا محمد عبد الله الشنقيطي ـ المدرس بدار الحديث ـ أن الفقيد رحمه الله كان صاحب فطنة وذكاء مذ كان طالبًا، ويتذكر من ذلك أنه لما كان يُدَرِّسهم شرح ابن عقيل في القسم الثانوي مَرَّ عليهم قوله تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ﴾ من صدر سورة البقرة [٢٤].

وقد حصل نقاش بينهما حول الفعل المضارع (تفعلوا)؛ هل هو مجزوم بلم أو بإن؟.

بعض النحويين يقول: الجازم هو (لم) لكونها شديدة الاتصال بالفعل المضارع، بخلاف (إن) فإنها تدخل على المضارع وتدخل على الماضي، وقد يقع بعدها اسم؛ كما في قول الله تعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ﴾ [التوبة: ٦]؛ فعلى هذا (لم) أشد التصاقًا بالفعل المضارع.

ويقول آخرون: (إنْ) هي الجازمة لأنها تؤثر في الفعل لفظًا بالجزم، ومعنًى بإبطال تأثير (لم) وذلك بإعادة الفعل المضارع لأصل معناه الحاضر والاستقبال.

والشاهد أن مثل هذه النقاشات التفصيلية لا يشارك فيها إلا النجباء.

---

(١) هذا البيت من منظومة (نصيحة الطلاب إلى اقتناص العلم بالآداب) للقاضي محمد بن علي بن محسن الحبيشي الوصابي رحمه الله (ت: ١٢٨٣هـ).

مواقف من همّته وجَلَده رَحِمَهُ اللَّهُ

إن سِيَر العلماء العاملين لتبعث في النفس الهمة والطموح، وتزرع فيها الحماسة في طلب العلم لتحقيق الأهداف الصحيحة والإنجازات الجليلة.

وحياته رَحِمَهُ اللَّهُ تحفل بمواقف علمية وتربوية جمة، مما شاهدنا أو أخبرنا به الإخوة الزملاء وطلابه على مر السنين؛ لكن همته وصبره وجلَده في الطلب والتحصيل والبحث والتأليف من الخصال السميّة التي أكرمه الله بها.

من ذلك ما أخبرني به أخونا الشيخ منير محمد إبراهيم ـ المدرس بالدار ـ، وكان يرافقه كثيرًا في السنوات الأخيرة لمراجعة المستشفيات بمكة وجدة، أن الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ كان يقول:

المرض الذي يوقفني عن الصلاة والتأليف هو الذي أذهب لعلاجه[1]!.

قال الشيخ منير: وكانت تأتيه باستمرار آلام في جنبه الأيسر من صدره مثل النغزة، فيحكّ ويرقي نفسه بالفاتحة؛ فأقول له: لم لا تكشف يا شيخنا؟ فيرد: لا، هذه آلام ما أوقفتني عن التأليف، أنا أذهب

(١) بعد أن بلغ رَحِمَهُ اللَّهُ الخامس والستين من عمره تقريبًا أنهكته أمراض مزمنة كالسكري والقلب وغيره ـ رفع الله درجته وأعلى منزلته ـ فأصابه اعتلال في الصحة وضعف في البدن، الأمر الذي أجبره على مراجعة المستشفيات وإجراء الفحوصات بكثرة، وفي هذه الفترة عجز ـ رحمه الله تعالى ـ عن إتمام شرح الترمذي ـ كما يأتي ـ.

للدكتور وأجلس عنده وأنتظر وأراجع في يوم آخر، لا لا، هذا الوقت سأكتب فيه ثلاثين أو أربعين صفحة، ويفوت الأمة خير كثير من الصفحات، أنا لا أذهب!

وكان رَحِمَهُ اللَّهُ على هذا، ولما أصيب في عينه في السنوات الخمس الأخيرة تقريبًا أجريت له عمليتان لعلاج المياه البيضاء؛ ففرح وحمد الله كثيرًا، وكان يقول ـ كما أخبرني الشيخ منير ـ: الحمد لله، رجع بصري كيوم ولدتني أمي، الحمد لله الآن أقرأ وأكتب وأؤلف.

وفي إحدى المرات اصطحبه الشيخ جاسم محمد مبارك من بيته متوجهَين قبيل العشاء لدرسه بجامع الأبرار، وقد ظهر الشيخ متغيرًا فسأله، فقال: أعاني ألمًا شديدًا في ضرسي، فأشار إليه بمراجعة المستشفى والاعتذار عن الدرس، فقال: لا، أعالج نفسي بالرقية وأرجو أن يخفّ الألم، فاستمر على الرقية إلى أن دخلا المسجد، فصلوا العشاء، ثم شرع في الدرس وأنهاه بخير كأن لم يكن به وجع ولا ألم!. فسألته فقال: الحمد لله، ذهب الألم، ولم أشعر بأي ألم وقت الدرس!

هنيئًا لهذه الهمة الجسورة التي تناست أوجاع نفسها لترمم أوجاع الأمة وتزكيها بالعلم!.

أخبرني أخونا الشيخ ياسر أحمد الشافعي ـ المدرس بالدار ـ وغيره أنه سمعه يقول: جئت من بلدي بنية شرح الكتب الستة.

وحدثني ابنه عبد الجليل أنه إذا طلب منه بعض العلماء وطلبة العلم توجيهًا أو نصيحة يقول لهم: (عليكم بنشر السُّنَّة، وتدريس الكتب الستة ليل نهار).

قلت: يا لها من نية حسنة ومقصد عظيم!.

وقد أعانه الله تعالى فحقق ما نوى في بلده الحرام من خدمة سُنَّة

النبي ﷺ؛ حيث انبرى ـ رحمه الله تعالى ـ لشرح الكتب الستة من عام ١٤٠٨هـ إلى مطلع عام ١٤٤٢هـ.

وكان شرحه لها على طريقتين:

إحداهما: ما شرحه لطلاب العلم في الدروس النظامية بدار الحديث، وفي الدروس المسائية في المساجد وغيرها، وحسب علمنا فإن دروسه القديمة التي كان ألقاها في مسجد الكعكي بالقشلة، أو في مسجد الدار بأجياد لم تسجَّل صوتيًّا بانتظام، وإن كان بعض الطلبة في أحايين كان يسجل لنفسه بمسجلات الكاسيت (الأشرطة)، ولعل هناك من لديه تسجيلات كاملة لبعض الدروس، علمًا بأنه لم تظهر الأجهزة الذكية آنذاك التي تيسر مع توافرها التسجيل لكل أحد.

أما الدروس المقامة ابتداء من المكتب التعاوني بالمنصور وجامع الأبرار، مرورًا بالحرم المكي، وانتهاءً بجامع الأمير سلطان بالزاهر؛ فمسجلة.

والطريقة الأخرى: شروحاته المحررة المصنفة؛ فقد شرح صحيح الإمام مسلم في كتابه: (البحر المحيط الثجاج في شرح صحيح مسلم بن الحجاج)، ويقع في خمسة وأربعين مجلدًا مع مجلدين للفهارس، وقد شرع فيه من عام ١٤٢٤هـ، وانتهى منه في السادس عشر من شهر ذي الحجة عام ١٤٣٣هـ.

وشرح سنن الإمام النسائي في كتابه (ذخيرة العقبى في شرح المجتبى، أو غاية المنى في شرح المجتنى) ويقع في اثنين وأربعين مجلدًا.

وأمضى الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ في هذا الشرح خمسة عشر عامًا تقريبًا، حيث انتهى منه سنة ١٤٢١هـ.

وشرح جامع الترمذي في كتابه (إتحاف الطالب الأحوذي بشرح جامع الإمام الترمذي) وشرع فيه سنة ١٤٣٢هـ.

وكان الشيخ قبل الشروع في شرح سنن الترمذي عزم على تفسير القرآن الكريم استجابةً لمقترح بعض أهل العلم بحكم تمكنه من علوم الآلة؛ فلما زار سماحة المفتي الشيخ عبد العزيز آل الشيخ عرض عليه أن يشرح سنن الترمذي.

وكان المفتي يثني على شرحه لمسلم والنسائي، وكان يُقرأ له في شرح النسائي ـ كما أخبرني الشيخ منير محمد إبراهيم والشيخ محمد المعتز والشيخ عبد الله بن سعيد القحطاني وغيرهم ـ غير أن شرح الترمذي لم يكتمل.

وسأله بعض الإخوة عن المدة التي ينجز فيها مجلدًا كاملًا من شرح صحيح الإمام مسلم، فقال: إن لم أرتبط بمواعيد وأعمال جانبية فغالبًا أنهي المجلد في شهر واحد، وإلا ففي شهر ونصف!.

وقال الشيخ عبد الكريم الخضير ـ لما سمع هذا من أخينا الشيخ جاسم محمد مبارك ـ متعجبًا: أنا شرحت النخبة أو غيرها في مجلد قضيت قرابة السنتين، والشيخ محمد (اللَّهُمَّ بارك) ينهي مجلدًا في شهر أو في شهر ونصف!.

قال لي الشيخ منصور بن سعيد بن رشيد النعماني: «في إحدى المرات حين كنت أراجع أجزاء من شرح سنن النسائي وكان الشيخ حريصًا أن أنهيها في أسرع وقت ممكن، وكان ذلك شغله الشاغل في تلك الفترة، ثم حدث أن سُرقت سيارة الشيخ، وكانت من نوع (كرسيدا)، وانتشر الخبر بين الطلاب، وخرج بعضهم للبحث عنها في الشوارع، أما الشيخ فلم يكن همه إلا إنهاء مراجعة الشرح ودفعه

للطباعة، وكان يريد مقابلتي لكي يسلّمني دفعة من المسودة، ولم يكن عندي هاتف، ففوجئت في صباح ذات يوم بمن يطرق باب شقتنا، ففتحت فإذا هو الشيخ جاء بسيارة أجرة كي يسلّمني المسودة بنفسه، وكانت سيارته ما تزال مفقودة، فعظم عليّ أن يأتيني الشيخ بنفسه بسيارة أجرة، ولكنه قال لي: لا تهتم لذلك، كل ما أريده منك أن تنهي المراجعة، ثم أراد أن يعود بسيارة أجرة أيضًا؛ لكني أصررت على إيصاله بسيارتي، ثم عدت سريعًا لأنجز المراجعة.

وأضاف أيضًا: أنه رَحِمَهُ اللَّهُ كان في بعض دروسه بالدار يحدثنا أحيانًا عن حالته في طلب العلم ببلاده، وكان مما ذكره أنه يمشي يوميًّا مسافات طويلة لكي يذهب لدرس أحد الشيوخ الكبار في بلادهم، وكان يمشي حافيًا، وكان يُفضِّل ذلك لأنه إذا لبس الحذاء واعتاد عليه ثم تلف لم يكن بمقدوره أن يشتري غيره لقلة ذات اليد، فكان ذلك مما تعجبت منه في صبره وجلده من أجل تحصيل العلم[١].

وقد أخبرني بعض شيوخنا القدامى أن الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ كان معروفًا بالمواظبة ولم يعهد عنه غياب قط لما كان طالبًا، وكان شغوفًا باقتناء الكتب وقراءتها[٢].

وربما طلب من بعض الإخوة المدرسين أو الطلبة حجز نسخة له من كتاب صدر حديثًا إن سمع عنه أنه مفيد، وكان أحيانًا يوصي بعضنا بشراء كتب معينة إذا أقيم معرض للكتاب.

كما كان يتواصل مع بعضهم بإهداء نسخ مما صدر من مؤلفاته

---

(١) وقد ذكر الشيخ هذا لغيره من طلابه، منهم: أخونا الشيخ حبيب صبور، وأخونا الشيخ إبراهيم شلبي وغيرهما.

(٢) أخبرني بذلك شيوخنا الفضلاء: عبد العزيز علي العجمي، وعبد السلام محمد سعيد، ومحمد عبد الله الشنقيطي، ومحمد السيلاني، وغيرهم ـ حفظهم الله ـ.

لهم، ويحضهم على تقييد ما فيها من تنبيهات وأخطاء.

أخبرني أخونا الشيخ عبد الله عوض قال: «لما قدم شيخنا إدريس محمد علي الإتيوبي ـ رحمه الله تعالى ـ من اليمن لأداء العمرة دعاه شيخنا محمد عبد الله الشنقيطي ـ حفظه الله ـ إلى بيته لتناول طعام العشاء وكنت ممن أكرمهم الله بحضور هذا المجلس، وبعد انتهاء العشاء قمنا بتوصيل الشيخين الجليلين الشيخ إدريس محمد علي والشيخ محمد بن علي آدم ـ رحمهما الله جميعًا ـ وكنت معهم في السيارة وفي أثناء الطريق أخرج شيخنا محمد بن علي آدم مجموعة من الأوراق كانت معه في ظرف يحمله في يده، وقال للشيخ إدريس: هذه منظومة في أصول الفقه نظمتها، سأقرأ عليك بعضها الآن، وإذا كان عندك بعض الملاحظات عليها فأفدنا جزاك الله خيرًا، ثم بدأ يقرأ عليه شيئًا من المنظومة حتى وصلنا إلى بيته، ثم دفع الأوراق إلى الشيخ إدريس وقال له: سجل ملاحظاتك عليها».

ولا أنسى إصراره وحرصه الشديد على اقتناء كتاب (معالم أصول الفقه عند أهل السُّنَّة والجماعة) فلما وجده فرح كثيرًا، وقد وصفه بالجودة وحسن البحث والإتقان مع كثرة الفوائد[1].

وكان ـ رحمه الله تعالى ـ عزم على نظم المسائل الأصولية التي في كتاب (الرسالة) للإمام الشافعي ـ رحمه الله تعالى ـ، ثم تردد لكون مباحثها ومسائلها قليلة لا تفي برغبات طلاب علم أصول الفقه.

---

(١) قال رَحِمَهُ اللَّهُ في مقدمة شرحه ١/ ٢١: «وهي رسالة دكتوراه نوقشت في الجامعة الإسلامية بالمدينة النبوية بتاريخ ٢٥/ ١/ ١٤١٥هـ للشيخ محمد بن حسين بن حسن الجيزاني، سمّاها (معالم أصول الفقه عند أهل السُّنَّة والجماعة) أجاد فيها وأفاد، وأحسن البحث وأتقن، فهي مفيدة جدًّا في منهج السلف في أصول الفقه، فجزى الله مؤلفها خير الجزاء».

وفي ذلك قال رَحِمَهُ اللَّهُ: «فإذا رأيت كونها مهدت طريق السلف في هذا البحث نشطت لنظمها، وإذا رأيت قلة مباحثها أحجمت ثم قال: وفكرت في تتبع كلام من حقق هذا الموضوع وأشبع الكلام فيه كابن تيمية وابن القيم وغيرهما ممن أسهب وأطنب في تحقيق منهج السلف في الأصول، ويمنعني من ذلك اشتغالي بتأليف شرح (سنن ابن ماجه) وغيره من المؤلفات»[1].

والحاصل أنه لما ظفر بكتاب (معالم أصول الفقه عند أهل السُّنَّة والجماعة) للشيخ محمد بن حسين الجيزاني ـ جزاه الله خيرًا ـ فرح كثيرًا واعتمد عليه في نظمه الماتع الواقع في أكثر من ثلاثة آلاف بيت، ثم شرح النظم في ثلاثة مجلدات.

وقد ذكر فيه رَحِمَهُ اللَّهُ جل المسائل الأصولية التي يحتاجها طالب علم الأصول، على طريقة أهل السُّنَّة والحديث، بعيدًا عن آراء المتكلمين ومصطلحاتهم، مع نقولات من كلام أئمة السلف في هذا الفن كالإمام الشافعي، ومن بعده من العلماء.

وقد أشار ـ رحمه الله تعالى ـ إلى ذلك في صدر النظم فقال:

وبعد طالما يجول في الخلد ... أمر له الهمم تصبو بالعتد
ألا هو البحث عن المسائل ... أي لأصول الفقه ذي الفضائل
ذاك على طريق أهل السُّنَّة ... ذوي الهدى والفضل والجماعة
يقدمهم في ذا الإمام الشافعي ... عليه رحمة الإلٰه الواسع
قد ألف الرسالة المرضية ... مشحونة بالسنن السنية

(١) قال ذلك في كتابه المنحة الرضية ١/ ٢١.

فيا لها رسالة هنية ... تفيد من مال بحسن نية
وكنت عازمًا على نظمي لها ... مقربًا للظامئين جلها
فبينما رجلي لذا أقدم ... مؤخرًا أخرى لكيما تحجم
جاءن شخص آخذ رسالة ... قد احتوت ما قد ذكرت حاله
قد لخصت كلام أهل السُّنَّة ... مثل الإمام الشافعي القدوة
وكابن تيمية ناموس السلف ... مفند الزائف من رأي الخلف
كذا خليفته نجل القيم ... مهذب النهج ببحث قيم
لما رأيتها طربت فرحا ... حيث وجدتها حوت مقترحا
أسألك اللَّهُمَّ أن تسهلا ... نظما على جل المهم اشتملا
واجعله خالصا لوجهك العلي ... لسان صدق لي لدى الأفاضل
يكون نافعا لكل من قبل ... بالحفظ والفهم وبالنشر شغل
أسميته بالتحفة المرضية ... يا رب فاجعلها غدا رضية

* وقد تميز هذا النظم بكونه سهلًا رائقًا، بعيدًا عن طرائق أهل الكلام والمنطق كما بيّن ذلك في نظمه وشرحه له، علمًا بأنه قد انتهى منهما (النظم وشرحه) في عام (١٤٢٤هـ)!

ومما يدل على همته الرفيعة التي يتضاءل أمامها الوصف ما يلاحظه القارئ في أجزاء كثيرة من مؤلفاته الكبار كشرح مسلم والنسائي والترمذي؛ فإن المدة التي أنجز فيها رَحِمَهُ اللَّهُ أجزاء هذه المؤلفات يمكن معرفتها؛ لأن الشيخ عادة يقيد تاريخ البدء في الجزء ونهايته، والمتتبع يدرك ما بذله ـ رحمه الله وجزاه عن الإسلام خيرًا ـ من جهد ووقت عظيمين، لا سيما إذا علم أن شرح الحديث على المنهج الذي سلكه يعد شرحًا مفصلًا جدًا؛ فهو يتضمن الكلام على المسائل الإسنادية والمباحث اللغوية والأحكام الفقهية ومذاهب العلماء والفوائد والترجيحات وغيرها، وقد تطول بعض

المباحث، وقد تقصر بحسب الأحاديث؛ لكن الغالب هو الأول.

وهاكم أمثلة قليلة من كثير على ذلكم:

*** شرح صحيح الإمام مسلم:**

(البحر المحيط الثجاج في شرح صحيح مسلم بن الحجاج):

ـ الجزء الخامس عشر منه بدأ فيه من بعد صلاة العشاء بتاريخ ١٥/ ٣/ ١٤٢٧هـ وانتهى منه في ١٦/ ٥/ ١٤٢٧هـ عند أذان صلاة المغرب، وشرح في هذه المدة وهي شهران ٢١٧ حديثًا.

ـ والجزء الرابع والعشرون منه بدأ فيه في ١٠/ ٥/ ١٤٢٩هـ، وانتهى منه وقت السحر ليلة الخميس بتاريخ ١٤/ ٧/ ١٤٢٩هـ.

وشرح رَحِمَهُ اللَّهُ في هذه المدة ٢٢٠ حديثًا.

ـ والجزء الخامس والأربعون منه بدأ فيه بتاريخ ٢٣/ ١١/ ١٤٣٣هـ وانتهى منه في الثلث الأخير ليلة الخميس ١٦/ ١٢/ ١٤٣٣هـ وشرح في هذه المدة القصيرة ١٥٤ حديثًا.

وهكذا في أجزاء أُخَر.

*** شرح الإمام الترمذي:**

(إتحاف الطالب الأحوذي بشرح جامع الإمام الترمذي):

ـ المجلد الأول (من الحديث الأول إلى الحديث الخمسين)، بدأ فيه رَحِمَهُ اللَّهُ من ٦/ ١٠/ ١٤٣٢هـ بعد صلاة الصبح يوم الأحد إلى ٧/ ١/ ١٤٣٣هـ يوم الجمعة المبارك.

وقال رَحِمَهُ اللَّهُ في نهاية المجلد الثاني: وكان انتهاء الجزء الأول بتاريخ ٧/ ١/ ١٤٣٣هـ ومدة ما بينهما شهران وثلاثة عشر يومًا، وهذا من فضل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وتوفيقه، اللَّهُمَّ ارزقني إتمام الكتب على الوجه المطلوب، إنك على كل شيء قدير.

ـ المجلد الثاني (من الحديث الحادي والخمسين إلى الحديث السابع بعد المائة)، بدأ فيه رَحِمَهُ اللَّهُ من ٧/ ١/ ١٤٣٣هـ إلى ٢٠/ ٣/ ١٤٣٣هـ بعيد صلاة المغرب.

وقال رَحِمَهُ اللَّهُ في نهاية المجلد الثالث: وكان انتهاء الجزء الثاني بتاريخ ٢٠/ ٣/ ١٤٣٣هـ ومدة ما بينهما شهران وأربعة عشر يومًا، وهذا من فضل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وتوفيقه، اللَّهُمَّ ارزقني إتمام الكتب على الوجه المطلوب، إنك على كل شيء قدير، آمين.

ـ وقال رَحِمَهُ اللَّهُ في نهاية المجلد الرابع:

وكان انتهاء الجزء الثالث بتاريخ ٤/ ٤/ ١٤٣٣هـ ومدة ما بينهما شهر وستة وعشرون يومًا، وهذا من فضل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وتوفيقه، اللَّهُمَّ ارزقني إتمام الكتب على الوجه المطلوب، إنك على كل شيء قدير.

*** شرح سنن النسائي:**

وشرحه لسنن الإمام النسائي المسمى بـ (ذخيرة العقبى في شرح المجتبى) أو (غاية المنى في شرح المجتنى) هو أول كتاب موسع له استفتح به شرح الكتب الستة، وقد أطال في مباحثه ومسائله وموضوعاته، مع ترتيب رائق وأسلوب فائق، وهمته مع هذا الكتاب كانت متقدة، ورحلته معه شاهدة على جلد منه عظيم.

وقد استهل شرحه بمقدمة طويلة جاءت في أكثر من مائة وسبعين صفحة، ثم ابتدأ في الشرح (من كتاب الطهارة إلى آخر كتاب الأشربة في خمسين كتابًا).

وذكر رَحِمَهُ اللَّهُ أنه أول ما شرع فيه وأخرج بعض أجزائه حاول أن يثبطه بعض الناس بنحو قولهم: من يقرأ مثل هذه الشروحات الموسعة!.

إلا أن بعض أهل العلم باركوا عمله وأشعلوا همته حاثّيه على

المضيِّ قدمًا على المنهج ذاته؛ بل قال له سماحة المفتي وبعض العلماء ما معناه: سيأتي من يقرؤه ويحتاج إليه ويستفيد منه[١].

وقد ذكر له سماحة المفتي أنه يقرأ عليه شرحه للنسائي وأنه يستفيد من ترجيحاته؛ بل إنه بلغ فيه ما بعد الجزء العشرين[٢].

وعلى منهجه وعزيمته أنجز الفقيد رَحِمَهُ اللَّهُ مشروعه الجليل، ولم يلتفت إلى ما قال وقيل؛ بل أتم بعض أبوابه بقوله: وهو حسبنا ونعم الوكيل.

وقد أمضى في هذا الشرح المبارك نحو خمسة عشر عامًا؛ حيث انتهى منه سنة ١٤٢١هـ.

ومع مرور الليالي والسنين اشرأبَّت إلى هذا الشرح الأعناق، ورمقته العيون والأَحداق، ونهل من مسائله وترجيحاته علماء الآفاق؛ فبه عرف أهل العلم هذا العلَمَ الفذَّ الصبور، وأدركوا أن دين الله بأمثاله من الأئمة محفوظ منصور.

ومما يدل على همته وجلده رَحِمَهُ اللَّهُ على بذل العلم لراغبيه أن بعض طلبة العلم ألحوا عليه أن يأتيهم في الرياض ليدرسهم في مسجدهم، وذلك قبل حج عام ١٤٣٠هـ، وكان عددهم كبيرًا، فكان من الصعب

---

(١) سمعنا ذلك منه رَحِمَهُ اللَّهُ، كما سمعه آخرون، منهم الشيخ محمد المعتز والشيخ منير محمد إبراهيم وغيرهما.
وفي لقاء بينه وبين فضيلة المفتي في مكتبه بمكة المكرمة ـ كما أخبرني تلميذ الشيخ محمد المالكي، وهو المنسق لهذا اللقاء ـ أجلسه المفتي بجانبه وأخذ يقرأ عليه شيئًا من مقدمة شرح النسائي من حفظه؛ فتعجب شيخنا محمد وقال ـ بعدما خرج ـ: هذا حافظ، هذا حافظ، ما شاء الله! ما شاء الله!.
وفي هذا اللقاء ـ كما أخبرني الشيخ محمد المالكي ـ أثنى فضيلة المفتي على شرح النسائي، وسأله عن جهوده العلمية الأخرى، وطلب منه أن يستمر في تأليفاته، وأن لا يحيل فيها على النسائي إذا شرح الكتب الأخرى، وقال له: لعل من لم يتمكن من شراء شرح النسائي لا يفوته الخير الذي فيه، إذا أحلت إليه سيفوته الخير.

(٢) حدثني بهذا أخونا الشيخ منير محمد إبراهيم عنه ـ رحمه الله تعالى ـ. وبنحوه أخبرني الشيخ إبراهيم شلبي.

انتقالهم جميعًا إلى مكة؛ لأن ذلك سيكون أمرًا مكلفًا عليهم، وكان قد علم في زيارة سابقة أن فيهم فتية يحفظون المنظومات العلمية كألفية ابن مالك وملحة الإعراب ويحفظون ألفية العراقي في السيرة وألفية السيوطي في الحديث، بالإضافة إلى حفظ القرآن والأحاديث، وبعد طلبهم المتكرر أجاب لهم الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ وقال: أنا سآتيكم لأني استشرت زوجتي فقالت: هؤلاء الشباب لديهم همة لطلب العلم، فكُن عونًا لهم!.

يقول الشيخ عبد الله بن سعيد القحطاني ـ وهو المنسق لهذه الدروس ـ: «وصلنا إلى المسجد قرب الإقامة لصلاة الفجر، فصليناها، وبعدها رجوت من الشيخ أن يرتاح؛ لأن ترتيبنا كان بعد الفجر إلا أن تأخر الشيخ وقدومه من السفر أرهقاه، فطلبت منه أن يرتاح وأنا سأُوقظه لاحقًا في الصباح.

بعد أن صلينا الفجر، تحادثت مع الشيخ وقلت له: أنت مُرهَق يا شيخ محمد، فلترتحْ وأنا سأُوقظك في التاسعة أو العاشرة، كانت أيام شتاء وصلاة الفجر تكون بعد الساعة الخامسة.

تفاجأت في السادسة والنصف أو السابعة بنداء الشيخ من الأسفل: أبا مهند! أبا مهند! الدرسَ الدرسَ.. أخذ يُنادي فنزلت إليه مُسرعًا، وقلت له: يا شيخ محمد، ظننت أنك مُرهَق من السفر وتحتاج إلى راحة؛ لكن يبدو أن الهمة كانت أقوى من الراحة، فقال: لنبدأ باسم الله.

اتصلت بالإخوة وقلت لهم: احضروا، وفعلًا حضرنا الدرس، واستمرّ الدرس من هذه الساعة إلى التاسعة ليلًا، ولمدة خمسة أيام، كنا نصلي الفجر ويستمرّ الدرس إلى الساعة التاسعة ليلًا.

نبدأ الدرس بعد صلاة الفجر، ثم نقوم إلى الإفطار، ثم نعود إلى الدرس إلى وقت الضحى.

يقول الشيخ ـ جزاه الله خيرًا ـ: نريد أن نتقوّى، فيصلي صلاة الضحى في نحو الحادية عشرة، وبعد ذلك يستمرّ الدرس إلى الظهر، ثم نصلي الظهر ونستمرّ فيه حتى يأتي وقت الغداء فنتغدّى، ثم يستمرّ الدرس إلى قبيل العصر بنحو ثلث ساعة، فيقول الشيخ: أريد راحة يسيرة.

ثم بعد العصر نشرب القهوة ونبدأ الدرس ونستمرّ إلى المغرب، ثم نصليها ونعود إلى الدرس إلى العشاء، ثم نصليها ونعود إلى الدرس حتى التاسعة ليلًا.

في هذه الدروس كنا نظنّ أن الشيخ سيشرح بعض كتب الآلة، إلا أن الشيخ قال: سنستمرّ في صحيحَي البخاري ومسلم فقط، نجردهما ونعلق عليهما ما شاء الله من التعليقات والفوائد».

وذكر بعض الإخوة ممن كان يحضر دروسه في درس التفسير لشيخنا محمد رَحِمَهُ اللَّهُ من كتاب عمدة التفاسير ـ أنه عند تفسير قوله تعالى في سورة الأنعام: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ ۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾﴾ قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: والمسألة تذكر في أول سورة النجم إن شاء الله.

حينها دعا شيخنا ـ رحمه الله تعالى ـ أن يبلّغه الله عَزَّوَجَلَّ تفسير تلك الآيات وأن يصل إلى هذا الموضع؛ فكان أن بلّغه الله ذلك بفضله وزيادة، وكان آخر ما وقف عليه في التفسير أواخر سورة المزمل عند قوله تعالى: ﴿وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٠﴾﴾[1].

* وقد عرف عن الشيخ ـ رحمة الله عليه ـ أنه لا يعتذر عن الدروس إلا أيام الامتحانات، أو إذا اشتد مرضه كما حصل في السنوات الأخيرة.

---

(١) ذكر لي هذا الموقف ـ مع اختلاف يسير ـ عدد من تلاميذه، منهم الشيخ سعيد أجالي، والشيخ إبراهيم شلبي، والشيخ حبيب صبور، وغيرهم.

من ذلك ما أخبرني به أخونا الشيخ إبراهيم شلبي، أنه في يوم شديد المطر ـ وكان في حلقته بمعهد دار الأرقم بالحرم ـ اتجه قبيل أذان العشاء إلى موضع درس الشيخ محمد رَحِمَهُ اللَّهُ فإذا به يرى الشيخ مقبلًا والثوب بلَّله القطر، ولم يُقَمْ في تلك الليلة بالحرم غير درسه، ولم يحضر له إلا من كان موجودًا قبيل هطول المطر واشتداده إلى درجة أن بعض المساجد صلى فيها الناس العشاءين جمعًا.

وهذا يدل على حرصه ورغبته في نفع من يحضر حبًّا للعلم.

قد يخفى على الكثيرين أن الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ بعد أن درس المرحلة الثانوية في معهد الحرم انتقل للدراسة في دار الحديث الخيرية وكان الوضع آنذاك يتطلب أن يعيد هو وزملاؤه الثانوية من البداية، يحدثنا زميله الشيخ مدهير جابي عن هذا الموقف فيقول: «حقيقة تضجرنا كثيرًا لما أجبرنا على إعادة المرحلة وتكلمنا؛ إلا أن الشيخ محمدًا رَحِمَهُ اللَّهُ كان له موقف مختلف فكان يصبّرنا ويقول لنا: لماذا تستعجلون؟ ألستم جئتم لطلب العلم؟ والعلم لا يدرك إلا بالصبر وطول زمان!، ورضينا بالأمر.

فكان رَحِمَهُ اللَّهُ في كل صباح قبل مجيء المدرس يُدَرِّسنا كتبًا في النحو والصرف والمصطلح، واستفدنا منه في هذه الدروس اللاصفية كثيرًا».

ومن همته ما سبق أنه ـ رحمه الله تعالى ـ قرأ على شيخه عبد الجليل علي الْبَرِيَديّ، تفسير القرآن مرّتين.

حقيقة له مواقف كثيرة تفيد بأنه رَحِمَهُ اللَّهُ كريم في بذل العلم ونشره وإفادة من حوله من الزملاء والطلاب، وكان يضحِّي بوقته لتعليمهم؛ بل كان يستجيب لهم إذا طلبوا منه إقامة درس حتى لو كان العدد قليلًا وكيفما يتهيأ له الوضع.

في مبنى دار الحديث بأجياد طلب منه بعض الإخوة أن يدرسهم في الفسحة كتاب (ملحة الإعراب للحريري) فاستجاب؛ إلا أنهم لم يجدوا مكانًا مناسبًا، فانعقد الدرس في جانب من ممر القسم العالي، وكان من ضمن الحاضرين أخونا الشيخ عمر جمعة يقول: كان الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ يلقي الدرس ولم يكن يبالي بما حولنا من أصوات الطلاب وتحركاتهم مما يحدث عادة في الفسحة!.

وتقدم أنه رَحِمَهُ اللَّهُ درس الكتب الستة لأربعة من طلبة العلم في سكنه المتواضع لما كان الشيخ مؤذنًا في مسجد بالقشلة عام ١٤٠٨هـ تقريبًا.

وليس بغريب إن علمنا أنه ـ رحمه الله تعالى ـ كان على هذا النشاط والجلد منذ أن كان تلميذًا عند مشايخه ـ رحم الله الجميع ـ.

فقد مكث عند بعض شيوخه ـ وهو الشيخ محمد سعيد بن علي الدّرّي ـ نحو ثلاث سنوات، وأخذ منه علومًا جمة، ودرس عليه فنونًا مهمة، مع الاطلاع على شروحها وحواشيها، قلّ من يدرسها في هذه المدة، يقول رَحِمَهُ اللَّهُ:

«جلست عنده ما يقارب ثلاث سنين، فأخذت منه بعض الصحيحين، والنحو والصرف، والبلاغة، والمنطق، والمقولات العشر، وآداب البحث والمناظرة، وأصول الفقه.

فمما قرأت عليه: بعض الفواكه الجنية للفاكهي، وألفية ابن مالك، وشرح ابن عقيل عليها، وحاشية الخضري عليه، ومجيب الندا على قطر الندى مع مراجعة حاشية ياسين الحمصي، ومغني اللبيب عن كتب الأعاريب مع مراجعة حاشيتي الدسوقي والأمير، وشافية ابن الحاجب مع مراجعة شروحها، وكتب البلاغة؛ كتلخيص القزويني مع شروحه وحواشيه، وكتب المنطق؛ كالسلم المنورق وشروحه وحواشيه،

والإيساغوجي وشروحه، ومتن الشمسية، والمقولات العشر، ورسالة في علم الوضع.

ومن كتب أصول الفقه: المنار وشروحه وحواشيه، وكتب لي إجازة فائقة، ثم قال رَحِمَهُ اللَّهُ: وبالجملة فجل ما أخذته من فنون العربية منه ـ رحمه الله تعالى ـ، وجزاه عني خير الجزاء»[1].

وذكر لي الشيخ محمد السيلاني في بيته ـ مدير شؤون الطلاب بمعهد الحرم المكي، والمشرف على سكن الطلاب سابقًا ـ أن إدارة المعهد كانت في العادة تسكِّن ثلاثة إلى أربعة من الطلاب في غرفة واحدة؛ إلا أنه لما رآه ـ رحمه الله تعالى ـ محبًّا للعلم ومجتهدًا في تحصيله، وعرف أن لديه كتبًا كثيرة يقتنيها كلما وجد مالًا؛ تم تقدير حاله فكان له غرفة كاملة لا يشاركه فيها غيره.

وما لا يعلمه كثير من طلاب العلم أن الشيخ محمدًا ـ رحمه الله تعالى ـ قدم إلى السعودية من بلده وهو عالم متبحر متفنن، وكان في الثلاثينيات من عمره؛ بل كان له مؤلفات كتبها في الحبشة إلا أنه لم يتمكن من إحضارها معه إلى السعودية، وإذا تذكر ذلك بكى وحزن، وقد ذكر هذا غير واحد.

أخبرني الشيخ أحمد أبو بكر نابو ـ وهو يعمل حاليًّا داعية ومدير مدارس إسلامية بدولة مالي ـ أنه زامل الشيخ محمدًا رَحِمَهُ اللَّهُ مدة سنوات في معهد الحرم، فوجده عالمًا في فنون كثيرة، وكان يدرس عليه وقت الفراغ علم العروض ومصطلح الحديث وغيرهما، وكان هو وبعض زملائه يستفيدون منه ويسألونه في مسائل العلم، ويقول: كنا نعرف أن

---

(١) مواهب الصمد (ص٩ ـ ١٠).

الشيخ محمدًا جاء إلى السعودية عالمًا؛ إلا أنه لم يُظْهِر أنه عالم؛ بل كان رَحِمَهُ اللَّهُ متواضعًا غاية التواضع!.

وكان الشيخ أحمد نابو قبل دراسته في المعهد رافق شيخنا محمدًا في السفر من مدينة الرسول ﷺ إلى الأردن بُغية الحصول على تأشيرة الدراسة من سفارة السعودية في عمّان[1]، وأخبرني أنه كان لا ينام في الليل إلا قليلًا رغم أنهما في سفر؛ بل كان رَحِمَهُ اللَّهُ يقرأ القرآن ويتهجد، ويراجع بعض العلوم.

وأضاف الشيخ أحمد نابو قائلًا: كان ألّف بعض الكتب في بلده إتيوبيا إلا أنه لم يتمكّن من إحضارها، وكنت أقول في نفسي: هذا الرجل سيكون له شأن!.

ومن زملاء الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ في الدراسة في معهد الحرم والدار الشيخ أبو محمد مدهير جابي ـ وكان جليسه جنبًا إلى جنب ـ يقول: «كان الشيخ العالم إدريس محمد علي الإتيوبي ـ المدرس بالدار سابقًا ـ يقول لنا: إن هذا ليس بطالب؛ بل هو من العلماء الكبار، هذا أعلم مني ومن أمثالي من مشايخ الدار!».

وذكر لي الشيخ أيوب أبو طلحة، والشيخ سلامة حسن ـ وهما من

---

(١) كما أخبرني بسفره رَحِمَهُ اللَّهُ إلى الأردن للحصول على تأشيرة الدراسة بعض أبنائه، والشيخ سراج الدين مطر ـ الإداري بشؤون الموظفين بالدار سابقًا ـ، والشيخ محمد السيلاني ـ مدير شؤون الطلاب بمعهد الحرم المكي الشريف سابقًا ـ.
وكان المعهد الذي يتبع (الرئاسة العامة لشؤون الحرمين) يرسل الطلاب لحصول تأشيرة الدراسة إما إلى السودان وإما إلى عمّان، والشيخ محمد رَحِمَهُ اللَّهُ حصل على تأشيرة الدراسة من سفارة السعودية في الأردن، بعد ما أرسل الشيخ ناصر حمد الراشد ـ الرئيس العام لشؤون الحرمين الشريفين آنذاك ـ خطابًا إلى الملحق الثقافي السعودي بعمّان لغرض الدراسة مع غيره من الطلاب، كما أخبرني بذلك الشيخ محمد السيلاني.

خريجي دار الحديث الخيرية وممن زاملوا الشيخ محمدًا رَحِمَهُ اللَّهُ في المرحلة الثانوية ـ أنه كان متواضعًا جدًّا قليل الكلام؛ لكنه إذا سئل أجاب، وأنه كان حديث مجالسهم مذ قدم الدار.

وأخبرني الشيخ أبو طلحة بأنه رَحِمَهُ اللَّهُ كان زميلًا لهم في الفصل الأول من الصف الثالث الثانوي عام ١٤٠٨هـ، ثم صار يدرّسهم في الفصل الثاني![1].

ويقول عنه زميله وتلميذه الشيخ مدهير جابي: «تبين لي أنه بحر ومتمكن في كل فن من فنون العلم، ومتواضع حتى يظن أنه ضعيف في كل شيء، وكان لا يحب الشهرة والظهور».

كان شيخنا علي بن عامر الأسدي ـ مدير الدار سابقًا رَحِمَهُ اللَّهُ يشجعنا دائمًا على ملازمة دروس الشيخ محمد بن علي آدم، وكان يحبه ويجله كثيرًا، ويقدمه دائمًا في اللقاءات، وقد رأيناه في بعض الرحلات عام ١٤١١هـ أو عام ١٤١٢هـ يستمع لحديثه ويستمتع بما يذكر من لطائف وطرائف مناسبة لمقتضى الحال.

وهو الذي قال عنه: «فذُكِر لمديرها آنذاك الشيخ علي بن عامر رَحِمَهُ اللَّهُ أني كنت مدرسًا في بلدي، وإنما التحقت في معهد الحرم لعدم المؤهل

---

(١) ومن طريف ما ذكره لي الشيخ أيوب أبو طلحة أن المدرس الذي كان يدرسهم سنن الترمذي في الفصل الأول كان معروفًا بينهم بالشدة وصعوبة أسئلته في الامتحانات، الأمر الذي أقلق عددًا من الطلاب لرسوبهم أو تدني درجاتهم؛ فلما تعين الشيخ محمد ـ رحمه الله تعالى ـ مدرسًا في الفصل الثاني حصل تغيير في الجدول، وكان من حسن حظهم أن جاءهم في سنن الترمذي؛ فلما قابله زميله وتلميذه الشيخ أيوب أبو طلحة قال له مازحًا: أنت تعرف حالنا في سنن الترمذي، وقد أصبحت مدرسنا في هذا الفصل بعد أن كنت زميلنا في الفصل الأول؛ فنرجو أن لا تنسى ما بيننا من حسن العهد والصحبة! فضحك الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ كعادته في مثل هذه المواقف، وقد تحقق لهم بعد ما تمنوا!.

للتدريس وهو الشهادة، فقال ـ جزاه الله عني خيرًا ـ: العمدة عندنا العلم لا الشهادة!. فقبلني مدرسًا، ورفع اسمي إلى المجلس الأعلى للدار، وكان رئيسه آنذاك سماحة الشيخ عبد العزيز بن عبد الله بن باز رَحِمَهُ اللَّهُ، فوافق المجلس على تعييني مدرسًا».

حدثني شيخنا الفقيه عبد العزيز علي العجمي قال: سمعت الشيخ عليًّا رَحِمَهُ اللَّهُ بعد تعيين الشيخ محمد مدرسًا، يقول مستبشرًا: وجدنا الطالب شيخًا!

وعلى هذه الجادة والخطى شاهدنا مواقف كثيرة وكريمة من شيخنا سليمان التويجري ـ المدير الحالي مع الشيخ محمد رَحِمَهُ اللَّهُ من التقدير والإجلال بما يليق بمنزلة العلماء، وكان يستشيره ويأخذ برأيه في كثير من الأمور الشرعية المتعلقة بالمناهج والبحوث العلمية وما يتعلق بها من أمور، وكثيرًا ما كان يوجه إليه الاستفسارات الشرعية في المجلس الإداري بعد مداولات ومناقشات المشايخ الأعضاء في موضوعات ترد إلى المجلس، كما أخبرني الشيخ أختر لقمان وغيره.

اتباعه للدليل ورجوعه للحق وتحرّيه الدقة في المسائل

كان مدرسو الدار وطلابها بمختلف مراحلهم يرونه ـ رحمه الله تعالى ـ بين فترة وأخرى موجهًا في المصلى وناصحًا إذا رأى ملاحظة أو تقصيرًا في بعضهم؛ فيقوم مسددًا منبهًا، وقد يبدو عليه التأثر وصدق اللوم على مخالفة الآداب والسنن من بعضهم كمسابقة الإمام في الصلاة والتشويش في المصلى، وعدم تسوية الصفوف، أو المرور بين يدي المصلي ونحو ذلك.

وكان إذا رأى العامي خالف السُّنَّة يعلمه إياها برِفق ولطف، وإن رأى طالب علم خالف السُّنَّة شَدّ في النصح عليه، وربما نهرَه كونه أحرى بالتطبيق والعمل بها[1].

حدثني أخونا الشيخ منصور بن سعيد بن رشيد النعماني، قال: قد كنت مرة أصلي في مسجد دار الحديث بأجياد، وكان الشيخ ـ رحمه الله تعالى ـ يصلي في الصف الذي يلي الصف الذي صليت فيه، وكان خلفي مباشرة، وقد خالفت السُّنَّة في جلسة التشهد، ثم بعد الصلاة كلمني ونصحني بأن جلستي كانت مخالفة للسُّنَّة، وأنه ينبغي أن أحافظ على السُّنَّة الواردة في ذلك، خاصة أنني من طلبة علم الحديث، فتأثرت من كلامه ونصحه وملاطفته لي، رَحِمَهُ اللَّهُ وجعل الجنة مثواه.

---

(١) وله رَحِمَهُ اللَّهُ في ذلك مواقف أخبرني ببعضها بعض الإخوة منهم: (منير محمد إبراهيم وهمام البيضاني وجاسم محمد مبارك وعبد الله شلبي وغيرهم).

وكنا نراه يستثمر المواقف في تعليم السُّنَّة وإقناع غيره بذكر بعض الأدلة في مسائل ربما يتكاسل فيها بعضنا[١].

فكان رَحِمَهُ اللَّهُ يعلمنا الصفة الصحيحة للصلاة عمليًّا وقت الحاجة إذا رأى بعض الأخطاء من المصلين كعدم إقامة الظَّهر وقت الركوع ونحوها.

والشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ معروف عنه أنه لا يفارق المسواك، وكان كل من حوله يراه مستاكًا في أحواله، في عمله وعند وضوئه، وقبل الصلاة والدروس[٢]، وكان أحيانًا يمازح ويحضّ عليه بقوله لمن معه: لماذا تترك سُنَّة السواك، والسواك بريال![٣].

حدثني بعض تلاميذه قال: سمعته رَحِمَهُ اللَّهُ يقول: يكفيني أو حسبي أن أنشر السُّنَّة النبوية في كل مكان[٤].

ومما ذكره الشيخ ـ رحمه الله تعالى ـ لغير واحد أنه بعد أن صلى سُنَّة الفجر بالحرم قديمًا اضطجع قليلًا، فمر عليه رجل وأعطاه خمسين ريالًا، فاستغرب الشيخ فقال للرجل: لم أعطيتني؟ قال: لأنك طبقت هذه السُّنَّة، وما رأيت أحدًا طبقها هنا![٥].

وأخبرني ابنه عبد الجليل بنحو هذا.

وفي موقف شبيه بهذا ما حدثني به الشيخ محمد المالكي قال:

قبل رحلتي مع الشيخ إلى الرياض لزيارة المفتي بات عندي في

---

(١) وقد ذكر لي غير واحد من المشايخ وطلبة العلم مواقف تدلّ على اعتنائه كثيرًا باتباع السُّنَّة وتطبيقها وحث غيره عليها مع ذكر الدليل.

(٢) وكنا نراه في الغالب قبيل افتتاح الدرس مستاكًا، أو يكمل أذكار الصلاة إن جلس على كرسي الدرس بعد صلاة العشاء، وربما تعمد أن يتأخر دقائق منتظرًا بعض الطلاب المرتبطين بالإمامة أو الذين يصلون في طريقهم حتى لا يفوتهم أول الدرس.

(٣) ذكر لي مثل هذا الموقف الطريف أخونا الشيخ جاسم محمد مبارك وغيره.

(٤) نقل لي هذا تلميذه أخونا همام البيضاني وغيره.

(٥) حدّث رَحِمَهُ اللَّهُ بهذا في غير مجلس، وممن سمعه منه الشيخ جاسم محمد مبارك.

سكني بجدة ليلة السفر فاستيقظنا مع أذان الفجر، وخشينا أن تقام الصلاة فخرجنا إلى المسجد فأدركنا الوقت قبل الإقامة بزمن؛ فإذا بالشيخ صلى ركعتي الفجر واضطجع فتعجب عامة من في المسجد ينظرون مستغربين منه! ما بال هذا الرجل اضطجع في المسجد بين الأذان والإقامة؟

فصلينا ولما عدنا قلت للشيخ: رأيت الناس ينظرون إليك؟ قال: هذه السُّنَّة، هذه سُنَّة النبي ﷺ كما في حديث عائشة أنه كان صلى ركعتي الفجر واضطجع[1]!.

موقف فيه تعظيم للسُّنَّة وتطبيق عملي لها حتى لو كان في ذلك شيء من الاستغراب من الناس.

* مما يدل على شدة متابعته للسُّنَّة ما حكاه أحد طلابه، قال:

حين كان يدّرسنا صحيح البخاري في المرحلة الثانوية، في إحدى المرات كان الشيخ يشرح، وعلى يساره جلس شخص لا أعرفه، ليس من زملائنا في الفصل وظننته منتسبًا.

على كل حال، كان مقصّرًا للحيته، وطرأت مسألة حلق اللحية أو هو سأل الشيخ عنها ـ نسيتُ ـ، فظننتُ أن الشيخ يُداريه.

---

(١) قال الإمام النووي رَحِمَهُ اللَّهُ في شرحه على صحيح مسلم ٦/١٩:
(والصحيح أو الصواب أن الاضطجاع بعد سُنَّة الفجر؛ لحديث أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: **(إذا صلى أحدكم ركعتي الفجر فليضطجع على يمينه)** رواه أبو داود والترمذي بإسناد صحيح على شرط البخاري ومسلم. قال الترمذي: هو حديث حسن صحيح. فهذا حديث صحيح صريح في الأمر بالاضطجاع، وأما حديث عائشة بالاضطجاع بعدها وقبلها وحديث ابن عباس قبلها فلا يخالف هذا، فإنه لا يلزم من الاضطجاع قبلها أن لا يضطجع بعدُ، ولعله ﷺ ترك الاضطجاع بعدها في بعض الأوقات بيانًا للجواز لو ثبت الترك، ولم يثبت، فلعله كان يضطجع قبل وبعد. وإذا صح الحديث في الأمر بالاضطجاع بعدها مع روايات الفعل الموافقة للأمر به تعين المصير إليه، وإذا أمكن الجمع بين الأحاديث لم يجز رد بعضها، وقد أمكن بطريقين أشرنا إليهما أحدهما: أنه اضطجع قبل وبعد. والثاني: أنه تركه بعدُ في بعض الأوقات لبيان الجواز. والله أعلم) انتهى كلامه رَحِمَهُ اللَّهُ.

بدأ الشيخ بتأصيل المسألة، وذكر الأدلة الكثيرة القاطعة بالتحريم، قاطعه الرجل وقال: لكن هناك قول للحسن أنه رأى أن لا بأس به.

هنا انتفض الشيخ وهو يقول: هل الحسن نبي، أنا أسوق لك أحاديث رسول الله ﷺ وأنت تقول قال الحسن[1]؟!.

* ومن المواقف التي ذكرها لنا غير مرة، مما يدل على إيثاره للحق وشدة اتباعة للسُّنَّة مع دعوة غيره إليها، وتحذيره من التعصب المذهبي ما نقله في كتابه شرح النسائي من الجزء السادس؛ حيث قال ما نصه:

«عجيبة: مما اتفق لي أن مؤذنًا أذن للمغرب، فدخل رجل حنفي المسجد بعد الأذان، فجلس قبل أن يركع ركعتين، فقلت له: يا أخي لا تجلس، فإنك دخلت المسجد، فتوجه إليك شيئان: نهيه ﷺ لمن دخل المسجد أن يجلس حتى يركع ركعتين، وقوله ﷺ: صلوا قبل المغرب... الحديث، فرد علي بأن الصلاة قبل المغرب مكروهة في مذهبنا، فقلت له: إني كنت حنفيًّا مثلك، وقرأت من كتب الحنفية أصولًا وفروعًا كتبًا كثيرة، وفي ظني أنك ما قرأتها كلها، ولكني لما رأيت الأحاديث الصحاح مخالفة لبعض مسائلها ـ كمسألتنا هذه ـ تركت ما كنت أقلد؛ لوضوح الحق لي والحمد لله، فتناقشنا كثيرًا، فلما أكثرت عليه قال لي: هل أنت أعلم من الإمام أبي حنيفة؟ فقلت له: هب أني لست أعلم، ولكن هل تعتقد أنت أن الإمام أبا حنيفة أعلم من رسول الله ﷺ حيث يقول: صلوا قبل المغرب، ويقول هو بكراهة الصلاة قبل المغرب، مع أني أحترم الإمام أبا حنيفة رحمه الله، وأعتذر عنه في مخالفته لهذا الحديث بأنه ما بلغه، أو بلغه، إلا أنه عن طريق لا يرضاها. فانقطعت حجة الرجل، ولكنه ما تراجع عما هو عليه لمجرد تعصب، نسأل الله تعالى أن يرينا الحق حقًّا، ويرزقنا اتباعه، ويرينا الباطل باطلًا، ويرزقنا اجتنابه، إنه بعباده رؤوف رحيم.

---

(١) حدثني بهذا أخونا الشيخ محمود سيد وهو من خريجي الدار.

ثم إني لا أقصد بهذا التنقص بمذاهب الأئمة، حاشا ثم حاشا، وكيف وهم الذين خدموا الكتاب والسُّنَّة، وقاموا في ذلك حق القيام، فأقوالهم شارحة للكتاب والسُّنَّة، فمما يجب على طالب العلم أن يستعين في فهم الكتاب والسنة بأقوال أهل العلم، من الفقهاء، والأصوليين، والنحويين، واللغويين، وغيرهم ـ رحمهم الله تعالى ـ.

ولكني أنصح المسلم، وأحذره أن يقلد آراءهم التي تخالف النصوص الصريحة الصحيحة، بدعوى أنهم أعلم منه، وأدرى بتلك النصوص، وكيف يدعي ذلك، وقد خالفهم في تلك المسائل من هو أعلم منهم، أو مثلهم.

وبالجملة؛ فالواجب على المسلم أن يجعل النصوص الصحيحة أساسًا يبني عليه دينه، ويستعين على فهمها بأقوال العلماء المحققين، ويجعل النصوص أيضًا ميزانًا يزن به آراءهم، فما وافق قبله، وما خالف رده، ولا يلتفت إلى قائله، فإن الحق أحق أن يتبع. نسأل الله تعالى أن يهدينا سواء السبيل، إنه سميع قريب مجيب، وهو حسبنا، ونعم الوكيل»[1].

وقال رَحِمَهُ اللَّهُ قبل هذا:

«تنبيه: الواجب على المسلم العاقل أن يكون ناصرًا للحق، ومتبعًا للدليل، يدور حيثما دار، ولا يلتفت إلى من خالفه، أيًّا كان قدره ومنزلته من العلم، ولا يمنعه من ذلك تقليده لإمام من الأئمة المجتهدين، فإنهم يصيبون ويخطئون؛ ولكنهم مأجورون على خطئهم أجرًا واحدًا، كما أنهم يؤجرون على صوابهم أجرين، فإنهم ما خالفوا النص، إلا لعدم وصوله إليهم، أو بلغهم إلا أنه عن طريق لا يرتضونها، أو تأولوه على حسب ما ظهر لهم، فأخطأوا في تأويله، إلى غير ذلك من الأعذار التي تبرىء ساحتهم أن ينزل فيها لوم وتوبيخ.

---

(١) ذخيرة العقبى في شرح المجتبى (٦/٦١٩).

وأما هؤلاء الذين يقلدونهم في أخطائهم فليس لهم عذر، إلا أنهم يقولون: إن إمامهم أعلم من غيره، فلا ينبغي مخالفته، يا للعجب! هل إمامهم أعلم من الصحابة والتابعين، المخالفين له في تلك المسألة، القائلين بما وافق النص الصريح الصحيح؟! إن هذا لشيء عجاب!»[(١)].

ذكر لي أخونا الشيخ محمد بن علي سعد ـ وكان إمام مسجد دار الحديث بأجياد، وأحد الخريجين من الدار ـ أن الشيخ ـ رحمه الله تعالى ـ كان إذا لاحظ على قراءاته في الصلاة خطأ في الوقف والابتداء ونحوه ينبهه ويبين له وجه الصواب، وأنه ـ رحمة الله عليه ـ لم يكن منشغلًا بتدريس العلوم والفنون فحسب؛ بل كان يعلمهم دقائق المسائل في أحكام الإمامة والقراءة إذا وردت مناسبة كحدوث خطأ ونحوه[(٢)].

ذكر لي غير واحد من المشايخ منهم الشيخ محمد نور عبد الرحمٰن الزرمة والشيخ إبراهيم شلبي والشيخ سعيد أجالي أن أحد الطلاب ممن كان يحضر دروس الشيخ ـ رحمه الله تعالى ـ في جامع الأبرار، كان قد سأله أو ناقشه في مسألة صرفية، وتبين بعد أن الصواب فيها كان مع الطالب، ولعله انشغل فحضر بعد أسابيع؛ فلما أبصره الشيخ وهو في أول الدرس قصده قائلًا: أين كنت من أيام؟ أبحث عنك من أول، بخصوص المسألة التي تناقشنا فيها تبين لي أني كنت مخطئًا، وما ذكرته أنت هو الصواب! ثم أعاد الشيخ شرح تلك المسألة من بدايتها، وكان ذلك في جمع كبير من الحضور.

---

(١) ذخيرة العقبى في شرح المجتبى (٦/٦١٨).

(٢) أفادنا ـ رحمه الله تعالى ـ ذات مرة في درس سنن أبي داود لما أخطأ أحدنا في مسألة المحرمات الأربعة: الميتة، والدم، ولحم الخنزير، وما ذُكر عليه غير اسم الله. قال رَحِمَهُ اللَّهُ ما مفاده: الآيات التي فيها ﴿فَمَنِ ٱضْطُرَّ﴾ لم يذكر حكم المضطر إلا في الأولى منها، وهي آية البقرة، يعني قوله تعالى: ﴿فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ﴾.

والعجيب أنه عرف صاحب المسألة وتحين مجيئه فخاطبه وعزا الصواب له أمام الجميع!.

وحدث مثلها مع أخينا الشيخ إبراهيم شلبي نفسه لما ذكر الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ مسألة الفصل بين المتضايفين في قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَٰدِهِمْ شُرَكَآؤُهُمْ﴾ [الأنعام: ١٣٧].

على قراءة ابن عامر بنصب أولاد وجر الشركاء.

بالفصل بين المضاف (قَتْلُ) وبين المضاف إليه (شُرَكَائِهُمْ) بمفعول المضاف (أَوْلَادَهمْ) فنبهه بعد الدرس على أن قراءة ابن عامر (زين) بالبناء للمجهول وليس للمعلوم، و(قتل) نائب فاعل وليس مفعولًا به، فقال له الشيخ: سأراجع وأرد عليك، ثم في اليوم التالي في بداية الدرس إذا به يقول: البارحة أخطأت في قراءة الآية في مسألة كذا، وقد صوبني الشيخ إبراهيم!.

وهذا دليل صدق على إيثاره رَحِمَهُ اللَّهُ للحق والإذعان له، وعدم استنكافه عن قبوله.

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ:

«سُئِل الفضيل بن عياض عن التَّواضُع، فقال: يخضع للحقِّ، وينقاد له، ويقبله ممَّن قاله»[1].

قال أخونا الشيخ منصور بن سعيد النعماني: «وكان الشيخ ينبه الطلاب على بعض القواعد الحديثية، وكنت في أثناء الدرس أنتبه لها وأقيدها، وفي بعض الأحيان قد يهم الشيخ في اسم رجل أو يظن أن المذكور في السند هو فلان، والصواب أنه غيره، فكنت ربما نبهته لذلك، وكان رَحِمَهُ اللَّهُ يتقبل بسعة صدر، ثم في اليوم التالي ينبه الطلاب على ذلك».

---

(١) مدارج السَّالكين (٢/ ٣٢٩).

وهذا من أمانته وتواضعه واحترامه للعلم، تغمده الله برحمته وأسكنه فسيح جناته.

واعتَرض عليه مرة بعض طلبة العلم في نسبة أحد الأبيات إلى بحره الشعري، وكان البيت مما يصح نسبته لأكثر من بحر، (المديد والرمل) لكن بقية أبيات القصيدة تكشف أنه من المديد، فقال له: لعل البيت من الرمل، فقطعه الشيخ تقطيعًا صوتيًا فقال له: هو من الرمل، ثم جاء في الدرس التالي وقال متبسمًا: راجعت القصيدة فإذا هي من المديد كما ذكرنا، ولم يحرجه بقول آخر[1].

ومما أنبأني به أخي الشيخ إبراهيم بن محمد القصاري ـ المدرس بدار الحديث الخيرية ـ وغيره أنه ـ رحمه الله تعالى ـ في بعض سني تدريسه لسنن النسائي في قاعات الدراسة بالقسم العالي بالدار كان يدرس الطلاب من شرحه، وإذا نبهه طالب على أمر أو استدرك عليه في مسألة، أو ذكر فائدة قيدها وأضافها في نسخته رَحِمَهُ اللَّهُ.

يقول أخونا الشيخ إبراهيم شلبي: «وأذكر مرة حينما كنت مكلّفًا بعَرْضِ بحوث التخرج على المجلس الإداري بالدار أنه في أحد المجالس استفتح فضيلة وكيل الدار الشيخ أحمد أبو مالح القحطاني بسؤالٍ عرضه على أعضاء المجلس للمناقشة فيه، وكان عن حُكْم وضع بَعْض الأشكال أو الصور على النوافذ لتمنع من اجتماع الحمام عليها، فتكلم المشايخ في المسألة وقال الشيخ محمد رَحِمَهُ اللَّهُ: وماذا في هذا؟ أرى أنه لا بأس به، فقال الشيخ أحمد: ألا يكون في ذلك تنفيرٌ للصيد وإزعاج له؟ فتراجع الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ في الحال وقال: «أحسنت وأصبت، جزاك الله خيرًا».

وكان رَحِمَهُ اللَّهُ يكلّف بعض طلابه بمراجعة كتبه خشية الوقوع في أخطاء فيتقبّل تصويباتهم واستدراكاتهم.

---

(١) أخبرني بهذا الموقف صاحبه أخونا الشيخ عبد الله شلبي.

يقول الشيخ منصور بن سعيد النعماني: «عندما أراد الشيخ طباعة الأجزاء الأولى من شرح سنن النسائي كنت أساعده في مقابلة المسودات وتعديلها قبل إرسالها للمطبعة، وربما راجعت المجلد الواحد مرتين، وكان الشيخ يعطيني مجلدًا أو نصف مجلد لأراجعه، فإذا أنهيته ذهبت إلى بيته لأسلمه إياه ويعطيني غيره، وقد تكرر ذلك مرات عدة، حتى إني أحيانًا أذهب في الظهيرة، وأدخل بيته، وأتغدى معه».

* ومما يدل على تحريه ودقته ـ رحمه الله تعالى ـ في رواة الحديث وضبط ما يتعلق بتراجمهم ما وجدناه من تدوين بخطه على بعض الكتب التي كان يعول عليها دائمًا، وكانت من أهم مصادره في مسيرته العلمية كفتح الباري وتقريب التهذيب وغيرهما.

لنأخذ مثالًا لذلكم: كتاب (تقريب التهذيب) للحافظ ابن حجر ـ رحمه الله تعالى ـ بتحقيق الشيخ أبي الأشبال؛ حيث اطلعنا فيه على مواضع من استدراكاته وتصويباته بخطه رحمه الله منها:

ـ لعل الصواب: الحراني كما في تهذيب الكمال وتهذيب التهذيب. اهـ. محمد. ص١٤٥

ـ لعل الصواب أنه من الثالثة، فتأمل. محمد. ص٢٠١.

ـ الصواب: ابن الربيع، بحذف (أبي) كما في سائر كتب الرجال. ص٢٢٦

ـ في تت وتك: ابن أبي حفص. فليحرر ص٣٧٩ في ترجمة سعيد بن يسار. والمراد من الرمزين: (تت) تهذيب التهذيب، (تك) تهذيب الكمال.

ـ سليمان بن عبد الرحمٰن التمار

(س ✗) (د ✓) ترجمته في ص٤١٠، وأراد ـ رحمه الله تعالى ـ بهذا التنبيه الذي رأيناه على الغلاف الداخلي للكتاب أن الراوي المذكور

أخرج حديثه الإمام أبو داود في السنن، ولم يخرجه الإمام النسائي.

ـ الذي في تهذيب الكمال وتهذيب التهذيب إسقاط (ق) فتنبه. ص٧٤٩.

ـ الصواب ١٥٢ ص١٠٣٤ في تصحيح سنة وفاة واصل بن عبد الرحمٰن أبي حرة.

ـ لعله من التاسعة ص٨٧٥.

ـ الصواب ٤ ص١٢٠٨، في تصحيح ما رمز له بـ (ع) الذي بمعنى روى له الجماعة، والفرق بينهما معلوم.

قال الحافظ رَحِمَهُ اللَّهُ في مقدمة «تقريب التهذيب»: «فإن كان حديث الرجل في أحد الأصول الستة أكتفي برقمه ولو أخرج له في غيرها، وإذا اجتمعت فالرقم (ع)، وأما علامة (٤) فهي لهم سوى الشيخين»[(١)].

وقد أدركناه يصوب الأخطاء الواردة في الكتب الورقية والإلكترونية في دروسه وغيرها، وينبه عليها، وهو ما أكده لي بعض أبنائه وتلاميذه أيضًا.

وكان رَحِمَهُ اللَّهُ قد عزم على عقد مجلسٍ لمشايخ دار الحديث ليملي عليهم تلك التصحيحات والتصويبات التي علق بها في هوامش نُسَخِه من هذه الكتب لا سيما «فتح الباري» الذي كان شديد العناية باقتناء جميع نسخه المطبوعة والمقارنة بينها وتصحيحها وتصويب ما اتفقت عليه النسخ من الأخطاء وتواردت عليه. لكن لم يُقَدّر ذلك والله المستعان[(٢)].

---

(١) وكان رَحِمَهُ اللَّهُ يعتني كثيرًا بطريقة قراءة الأسانيد قراءة صحيحة ويعلمها للطلاب في كل درس كإضافة (قال) قبل (حدثنا وأخبرنا وأنبأنا ونحوها)، وإضافة (أنه) بين الراوي و(قال) حسب السياق، مع الاعتناء بضبط أسماء الرواة وألقابهم وبلدانهم ضبطًا وإعرابًا.

(٢) كما أكد لي ذلك بعض تلاميذه، منهم الشيخ محمد المعتز، والشيخ إبراهيم شلبي، والشيخ منير إبراهيم والشيخ حبيب صبور وغيرهم.

مواقف من فرحه وهمّه

كان رَحِمَهُ اللَّهُ يفرح كثيرًا إذا ختم بعض الأجزاء من شرح النسائي أو شرح مسلم أو غيره، وربما دعا بعض معارفه وتلاميذه إذا صادفهم أو قابلهم لتناول العشاء في بيته، ويبيّن للحضور في الجلسة منهجه في الكتاب الذي أنهاه، وقد يناقش فيها بعض المسائل العلمية، وكان رَحِمَهُ اللَّهُ في مثل هذه اللقاءات يبدو مبتهجًا منشرح النفس يكثر من شكر الله والثناء عليه، وأحيانًا يردد فيها قول الله تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟﴾ [يونس: ٥٨].

ـ من ذلك ما أخبرني به الشيخ سعيد محمد مامي ـ المدرس بالدار ـ أنه عندما كان أمين مكتبة الدار بأجياد، وكان شيخنا محمد رَحِمَهُ اللَّهُ كثيرًا ما يجلس في المكتبة للبحث والتأليف، وصادف ذلك اليوم بحثه عن كتاب فلم يعثر عليه، وسأل بعض من كان في المكتبة حتى أضناه البحث، وأخيرًا توجه للشيخ سعيد مامي، فدله على موضع الكتاب وأحضره له، ففرح كثيرًا وقال له مداعبًا: أنت جاسوس المكتبة!.

ـ ودخل عليه بعض الإخوة المدرسين يومًا فرآه واجمًا كأنه مهموم؛ فسأله فقال: لا شيء، غير أني أبحث عن كتاب، وقد تعسر علي العثور عليه ـ ولم يتم تنزيله في المكتبات الحاسوبية حينذاك ـ فقال له صاحبنا: هذا الكتاب عندي، وقد اشتريته قبل أيام، فقال: أحضره لي، فلما أتى به في اليوم التالي شكره وفرح كثيرًا ودعا له[1].

---

(١) هو صاحبنا الشيخ عمر جمعة، والكتاب هو مفتاح الجنة في الاحتجاج بالسُّنَّة للإمام السيوطي رَحِمَهُ اللَّهُ.

ـ أخبرني بعض أبنائه أنهم لما كانوا معه في زيارة المدينة ـ وقد قصدوا المكث فيها مدة أسبوعين؛ فلما بلغه هناك خبر صدور موافقة الوزارة لاستئناف دروسه في جامع الأمير سلطان بالزاهر فرح كثيرًا، وقال: لنرجع إلى مكة الآن؛ استبشارًا وفرحًا بالعلم، ولم يمكثوا فيها إلا أيامًا[١].

* ومن همومه:

ـ أنه عجز بسبب أمراضه المتراكمة من إتمام شرح الترمذي، وكلما سأله أحد بين فترة وأخرى عن المقدار الذي وصل فيه يقول بكل حزن: ادع لي، ثم إذا سئل يقول: لعلي لا أتمكن من إتمامه، ثم أصبح يقول قبيل وفاته بسنة تقريبًا والحزن باد في محياه وكلماته: عجزت![٢].

ـ ما حدثني به أخونا الشيخ حبيب صبور، قال: أذكر مرة أتيته في الحرم وهو على كرسيه، فسلمت عليه وأنشدته قول المختار ابن بونا:

أتيتكم يا قضاة العلم والدينِ وليس لي غرض سوى الدمامينِ

وقلت له: هذا ابن بُونا لما أراد نظم التسهيل لم يجد شرحًا له يستعين به؛ فذكر له الدماميني عند بعضهم فقصده وقال أبياته.

ثم سألني رَحِمَهُ اللَّهُ ما الذي طبع من شروح تسهيل الفوائد؟

فقلت: لا يخفى عليكم أنه طُبع المساعد شرح تسهيل الفوائد لابن عقيل، وشرح المرادي، وشرح الدماميني، وأجزاء من شرح أبي حيان الغرناطي، وشرح ناظر الجيش.

---

(١) وكان يفضل أن تكون إجازته السنوية في الأسابيع الأولى من شهر شوال ويقضيها في مدينة الرسول ﷺ.

(٢) سمعنا هذا من شيخنا رَحِمَهُ اللَّهُ، كما سمعه غيري من الإخوة، منهم منير محمد إبراهيم، ومحمد المعتز الكامل، وإبراهيم شلبي، وحبيب صبور، وغيرهم.

فقال شيخنا متعجبا: هل طُبع شرح ناظر الجيش؟ فقلت له: نعم.

فقال: كم مجلدًا؟ فقلت: بضعة عشر مجلدًا وهو شرح ضخم.

فقال: كنا نسمع ذِكْره من المشايخ ونقرأ النقل عنه في الكتب، ثم قال متحسرًا حزينًا:

قد وهن العظم مني وضعفت قواي!.

ليتني أدركته من قبل حتى أتمكن من قراءته!.

حاله مع العبادة

عرفنا مما تقدم شغفه رَحِمَهُ اللَّهُ بالعلم وحرصه عليه وتوجهه إليه، وجدّه في تحصيله، ومواصلة الليل بالنهار لبثه وتذليله، مع مواقف من همته وصبره في التعليم والتأليف.

ولم يكن رَحِمَهُ اللَّهُ ممن يجمع العلم، ويقرأ العلم ليكثر محفوظاته، أو ليزداد ثقافة وتفاخرًا بين الناس، وإنما كان رَحِمَهُ اللَّهُ يتعلم العلم للعمل بما صح منه، وقد قيل: هتف العلم بالعمل، فإن أجابه وإلا ارتحل[1].

وعلوم الشرع لا تبتغى لتحصيل الوظائف، ولا يسعى لها لاتخاذ المناصب والرئاسات، وإنما تطلب من أجل العمل بما علمه والدعوة إلى الخير والفضائل، ومن أجل الخشية لله تعالى.

* والشيخ محمد رَحِمَهُ اللَّهُ رغم منحه الكثير من جهده وقته للعلم وطلابه مما هو من النفع المتعدي للأمة؛ لم يبخس نفسه في جانب العبادة والالتجاء إلى ربه، والتمسك بما ورد في الشرع من الأحكام والآداب؛ لأن القدوة العملية أبلغ في التعليم والتأثير من التعليم النظري.

قال شيخنا محمد الشنقيطي: «عبادته ـ رحمه الله تعالى ـ عبادة سُنة، وليست عبادة كثرة، وكان عفيف اللسان لا يحب الجدالات».

---

(١) هذا الأثر يُنسب إلى علي بن أبي طالب ومحمد بن المنكدر وغيرهما. يُنظر: اقتضاء العلم العمل، للخطيب البغدادي (ص٣٥ ـ ٣٦).

كان الشيخ عمر محمد السبيل ـ رحمه الله تعالى ـ كلما لقيني يسألني عن الدار وعن مناهجها وبعض مشايخها، ثم يقول: ما خبر الشيخ محمد علي آدم والشيخ الهرري؟ وقد جرت عادته أن يسأل عنهما كلما قابلني؛ فسألته عن ذلك؛ فقال: هؤلاء أهل علم وعبادة![1].

✿ أولًا: حاله مع الصلاة:

لقد كان رَحِمَهُ اللَّهُ معروفًا بالعبادة، حريصًا على الصلاة، معظِّمًا لها، يجلس قبلها وبعدها في خشوع وإخبات.

يقول الشيخ أبو محمد مدهير جابي: «كان مجتهدًا في العبادة والصلاة، لما كنا في معهد الحرم كان الطلاب وقت الفسحة يتسابقون للفطور خارج الحرم، وكان هو ينزل للطواف، وإذا رجع من طوافه جلست أدرس عليه بعض الفنون إلى أن تبدأ الحصة».

وكان رَحِمَهُ اللَّهُ ينطلق إلى المسجد أول ما يسمع الأذان، ويذر كل ما في يده من أعمال، وهذا أمر شهده معظم مدرسي الدار لا سيما أيام الامتحانات التي تتطلب الحضور الصباحي والمسائي لإتمام أعمال التصحيح وغيره.

وقد ذكر لي الشيخ محمد المعتز وغيره أنه كان يردد أحيانًا ـ وهو في طريقه إلى المسجد ـ (إذا أذّن المؤذن وثب)[2].

وإذا سئل بعد النداء غالبًا يعتذر عن الرد على الأسئلة ويرفض الإجابة والمناقشة لئلا يفوته التبكير.

---

(١) علمًا بأن الشيخ عمر السبيل درَّس بالدار مدة عامين تقريبًا لما كان موقعها بالششة، وقد درَّس فيها مادة الفرائض وأصول الفقه، وذلك من عامي ١٤٠٤ إلى عام ١٤٠٦هـ كما أخبرني بذلك شيخنا عبد الرب فيض، والشيخ سراج مطر وغيرهما.

(٢) صحيح البخاري مع الفتح، حديث (١٠٩٥)، كتاب التهجد، من حديثَ عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

عندما كان منزله رَحِمَهُ اللَّهُ بالنزهة خلف فرع وزارة الإعلام كنت أتردد إليه بعض الأيام لأعمال علمية؛ فكنت أراه يسبق كل من حضر عنده إلى المسجد.

وذكر لي ابنه الشيخ عبد الجليل أنه منذ الصغر كان يرى والده وهو يبكر في مشيه للصلاة إذا سمع الأذان ويترك ما في يده من كتب وأعمال متوجهًا إلى المسجد.

* واستشعاره رَحِمَهُ اللَّهُ بعظم أمر الصلاة بين زملائه وطلابه كان ظاهرًا جدًّا؛ وكان يعاتبنا أحيانًا ـ ونحن منغمسون في شؤون الامتحانات ـ بنحو قوله: لا تتحركون إلا إذا سمعتم الإقامة! وربما حث بعضنا على المحافظة على السنن القبلية والبعدية.

يقول الشيخ محمد المعتز والشيخ منير محمد إبراهيم والشيخ عمر جمعة وغيرهم ممن كان معه في مكتب واحد مدة سنوات: كان حريصًا جدًّا على تطبيق السُّنَّة في حياته ـ رحمه الله تعالى ـ ويسعى في غرسها وتعليمها لمن حوله دائمًا.

من ذلك محافظته على الصلاة بعد الوضوء حتى بعد اشتداد المرض عليه.

أخبرني ابنه عبد الجليل، والشيخ منير محمد إبراهيم، والشيخ إبراهيم محمد القصاري أنهم ما رأوه بعد وضوءٍ إلا مصليًا.

يقول الشيخ محمد المعتز: «ما رأيته متوضئًا إلا وصلى بعده ما كتب الله له، سواء في مقر عملي معه في دار الحديث، أو في حجي معه مدة سنوات، وكان لا يترك قيام الليل في الحج[1].

(١) وقد أخبرني غير واحد ممن حج معه منهم: الشيخ محمد المالكي، والشيخ محمد =

وأحيانًا كان يذكّر من حوله بحديث الإمام مسلم: **(ما من مسلم يتوضأ فيحسن وضوءه، ثم يقوم فيصلي ركعتين، مقبل عليهما بقلبه ووجهه، إلا وجبت له الجنة)**[1].

وذكروا لي أنهم كانوا يرونه يصلي على عربته سُنَّة الوضوء أو الضحى بعد مرضه، وذلك أول ما يدخل غرفة المدرسين.

وغالبًا إذا مررنا عليه في الغرفة صباحًا رأينا ابنه عبد الجليل يوجهه نحو القبلة.

حدثني أخونا الشيخ عبد الله بن سعيد القحطاني قال: «أذكر في إحدى المرات أن الشيخ عندما كان في إحدى زياراته للرياض، أذّن المؤذن ـ وكان الفجر يؤذن في الساعة الخامسة وأربع دقائق، وكانت أيام شتاء ـ، أذن في الساعة الرابعة وخمس دقائق، فقمت من فراشي، وقلت: هداه الله، هذا أزعج الشيخ، أذن قبل دخول الوقت!.

دخلت على الشيخ في موضع رقوده ـ وكان في المجلس في بيتي ـ، ووجدته مُسْتَقْبِل القبلة وقد مدّ رجليه، وهو يقرأ قول الله تعالى: ﴿وَٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾ [النساء: ٣٦]، كان يصلي ويتمايل تمايلًا يسيرًا، لأنه كان يصلي جالسًا.

سلمت على الشيخ وقلت له: هذا أزعجك يا شيخ؟ فقال: لا، جزاه الله خيرًا هذا يريد السُّنَّة، فقلت: ما عندنا أحد يؤذن هذا الأذان، هذا أخطأ وبكّر في الأذان، وبقيت ساعة على الفجر، فقال: أُوصيك

= المعتز، والشيخ أبو صهيب علي البلوشي أنه كان ينام مبكرًا لياليَ منى، ثم يستيقظ قبل الفجر بساعتين أو أكثر؛ فيقوم الليل ويذكر الله كثيرًا ويلهج بالدعاء.

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، حديث رقم (٢٣٤)، من حديث عقبة بن عامر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ورواه غيره.

بقيام الليل، ولو نصف ساعة، فقلت له: يا شيخ محمد، نحن نكون في دروس من بعد الفجر إلى التاسعة ليلًا، فكيف نجمع بين هذا القيام والدروس؟! فتعجّب الشيخ من ذلك.

وكان قليل النوم، ومع ذلك هو ينتقل من عبادة إلى عبادة، ممتثلًا قول الله تعالى ـ فيما نظنّ ونحسب ـ: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ ۝٧ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَب ۝٨﴾ [الشرح: ٧، ٨]، رَحِمَهُ اللَّهُ».

وأخبرني الشيخ محمد المعتز الكامل ـ وقد لازمه ورافقه في أحوال مختلفة ـ:

خمسة أشياء يأتي بها الشيخ في يومه ونهاره، وهي من صفات الصالحين:

ـ الالتزام بالورد القرآني.

ـ عدم ترك قيام الليل حضرًا أو سفرًا.

ـ التبكير للصلوات والمحافظة على السنن.

ـ اشتغال لسانه بالذكر.

ـ الإلحاح في الدعاء.

وأضاف: وسمعته غير مرة يدعو بإلحاح وهو ساجد.

يقول الشيخ سعيد محمد مامي: رأيته في الدار وخارجها إذا حان وقت الصلاة يترك كل ما في يده من أعمال ويتوجه إلى المسجد، وربما يكمل أذكار الصلاة في السيارة إذا خرج من المسجد لمهمة عاجلة أرافقه لأجلها.

أخبرني أخونا همام البيضاني ـ وقد رافقه بعض الأيام في مستشفى با شراحيل لما اشتد عليه المرض ـ أنه رَحِمَهُ اللَّهُ كان يحرص على الصلاة في وقتها ولا يتأخر عنها، وربما طلب منه أو من أحد أبنائه التراب للتيمم

إذا حان وقت الصلاة، وأنه لا يرى إلا مشغولًا بذكر الله وهو على السرير إن كان مستيقظًا.

يقول الشيخ أحمد أبو بكر نابو: لما رافقت الشيخ محمدًا في سفري من المدينة إلى الأردن وجدته عابدًا متواضعًا في غاية التواضع، وكان لا ينام في الليل إلا قليلًا رغم أننا في سفر؛ بل كان رَحِمَهُ اللَّهُ يقرأ القرآن ويتهجد، ويراجع بعض العلوم.

✿ ثانيًا: حاله رَحِمَهُ اللَّهُ مع القرآن والدعاء:

وعادته رَحِمَهُ اللَّهُ في ورده القرآني ختمه في أسبوع، وكثيرًا ما كان يرشد طلابه في اللقاءات العامة والخاصة إلى تحزيبه بـ (فمي بشوق)، وهو معروف عند بعض السلف[1].

---

(١) من أفضل الطاعات قراءة كتاب الله تعالى وتدبر معانيه، وأن يكون للمسلم ورد يومي، كما هو دأب صحابة رسول الله ﷺ ومن بعدهم من الصالحين.
وقد اختلفت عاداتهم في ختم القرآن الكريم، مع أن أغلبهم كان يختمه في سبعة أيام، قال الإمام النووي رَحِمَهُ اللَّهُ في شرحه على صحيح مسلم ٨/ ٤٢: «وقد كانت للسلف عادات مختلفة فيما يقرأون كل يوم بحسب أحوالهم وأفهامهم ووظائفهم؛ فكان بعضهم يختم القرآن في كل شهر، وبعضهم في عشرين يومًا، وبعضهم في عشرة أيام، وبعضهم أو أكثرهم في سبعة، وكثير منهم في ثلاثة، وكثير في كل يوم وليلة، وبعضهم في كل ليلة، وبعضهم في اليوم والليلة ثلاث ختمات، وبعضهم ثمان ختمات، وهو أكثر ما بلغنا». اهـ.
وقال رَحِمَهُ اللَّهُ في كتابه التبيان (ص٦١): «وأما الذين ختموا في الأسبوع مرة فكثيرون، نقل عن عثمان بن عفان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وعبد الله بن مسعود وزيد بن ثابت وأُبي بن كعب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وعن جماعة من التابعين كعبد الرحمٰن بن يزيد وعلقمة وإبراهيم رحمهم الله».
وقال الإمام ابن تيمية: «المسنون قراءة القرآن في سبع، ولهذا جعلوه سبعة أحزاب، ولم يجعلوه ثلاثة ولا خمسة، وهذا معلوم بالتواتر... وهذا الذي كان عليه الصحابة ـ أي: التحزيب بالسور وجعل القرآن سبعة أحزاب ـ هو الأحسن لوجوه» ثم ذكرها.
يُنظر: مجموع الفتاوى ١٣/ ٤٠٩، ٤١٠ ـ ٤١٣.
وقال الحافظ ابن حجر في الفتوحات الربانية ٣/ ٢٢٩: «أخرج ابن أبي داود عن =

يقول ابنه عبد الجليل: إن لم يدرك ورده في بيته أكمله في السيارة.

ذكر لي المشايخ: محمد المعتز، ومنير محمد إبراهيم، وجاسم محمد مبارك، وإبراهيم محمد القصاري، وبعض أبناء الشيخ أنه كان يستثمر مسافة الطريق في قراءة القرآن أو تكملة ورده اليومي من القرآن، وكثيرًا ما كان يستمع لتلاوة الشيخ الحصري من مسجل السيارة.

ومرة قال لبعض الإخوة: تعسر عليّ القرآن، أحب أن لا أخطئ فيه، فسألت الله كثيرًا حتى ثبت والحمد لله، القرآن لا يثبت إلا بالمعاهدة وتكرار المراجعة[١].

وإذا ركب مع أحد في السيارة من معارفه وطلابه سلّم عليه وسأل عن حاله، ثم يشرع في قراءة القرآن إلى أن يصل إلى مقصده ذهابًا أو إيابًا، وهذا أمر معروف عنه ـ رحمه الله تعالى ـ[٢].

= عثمان وابن مسعود وتميم الداري: أنهم كانوا يختمون في سبع، بأسانيد صحيحة».
* وهذه الكلمة: (فمي بشوق) اختصار لكيفية ختم القرآن في سبعة أيام، وكل حرف منها يشير إلى بداية السورة التي يبدأ بها الورد اليومي، ومعناها: فمي يشتاق ويتلهف لتلاوة القرآن الكريم، وتوضيحها:
١ ـ ف ـ م: من الفاتحة إلى المائدة.
٢ ـ م ـ ي: من المائدة إلى يونس.
٣ ـ ي ـ ب: من يونس إلى بني إسرائيل (الإسراء).
٤ ـ ب ـ ش: من بني إسرائيل (الإسراء) إلى الشعراء.
٥ ـ ش ـ و: من الشعراء إلى والصافات.
٦ ـ و ـ ق: من والصافات إلى (ق).
٧ ـ ق ـ القرآن: من (ق) إلى الختام أي سور «المُفصّل».
والتحزيب بهذه الطريقة فيه من اللطائف أن ترتيب السور يكون بأعداد فردية تصاعدية.
وبهذا يكون مجموع السور = ١ + ٣ + ٥ + ٧ + ٩ + ١١ + ١٣ + ٦٥ = ١١٤ سورة. والله أعلم.

(١) قال ذلك لأخينا الشيخ منير محمد إبراهيم والشيخ جاسم مبارك.
(٢) حدثني بهذا بعض أبناء الشيخ، والشيخ منير محمد إبراهيم وغيرهم.

يقول أخونا همام محمد البيضاني: ودأبه رَحِمَهُ اللَّهُ إن لم يكن مشغولًا بالتدريس والتأليف أن يقرأ ورده مِن القرآن الكريم، وأحيانًا أراه لما كنت أوصله إلى موقف سيارته يقرأ فيما أهدي له من الكتب ويطلع على الغلاف والمقدمة والفهرس سريعًا، وإذا صعد سيارته إما أن يواصل القراءة فيه إن رآه مفيدًا وإلا شرع في قراءة القرآن.

وأنبأني الشيخ محمد المعتز قال: «ورأيته يختم القرآن كل ليلتين في أحد الرمضانات، هذا في الدار فقط، وأما ختماته في بيته فلا أعرف عنها وعن عددها».

وسأله الشيخ المعتز مرةً إذا استطاع أحد أن يختم في يوم واحد؛ فكيف يوفق بين حديث النهي عن ختمه في أقل من ثلاث؟

فكان جوابه رَحِمَهُ اللَّهُ: ينويه ختمًا لما فاته طول السنة.

وذكر لي شيخنا الفقيه عبد العزيز علي العجمي، أنه رَحِمَهُ اللَّهُ كان شديد التأثر بما يمر عليه من آيات وأحاديث في دروسه ومشاركاته اللاصفية، وأحيانًا كان يسبحل ويحوقل ويسترجع.

قال أخونا الشيخ علي عطية ـ المدرس بالدار ـ: «انشغاله ـ رحمه الله تعالى ـ بالذكر وقراءة القرآن أمر ملاحظ لا سيما وقت المراقبة في قاعات الامتحانات».

وهذا دأبه الذي لمسناه فيه رَحِمَهُ اللَّهُ منذ أن عرفناه.

يقول الشيخ محمد المالكي:

«رافقته في الحج غير مرة فما كان يتحدث إلى أحد، إن كنت موجودًا طلب مني ما يريد أو حدثني فيما يجد، وكان كثير الصمت لا يتكلم إلا في قدر حاجته، وفي عرفة لما رآني ـ وقد تأخرنا في المجيء إلى

المخيم لترتيب أمر الغداء ـ أشار إلي فجئته؛ فقال لي: أريد قهوة، وكان المخيم لم يعد فيه شيء من المشروبات، قال: أريد قهوة قوية أجد نعاسًا، وأنا أريد أن أستغل الوقت في الذكر والعبادة، قلت: سبحان الله!

أكثر الحجاج الذين في المخيم مستريحون نائمون ليستعدوا للذكر والدعاء بعد العصر؛ لكن الشيخ يطبق السُّنَّة، فقلت له: أبشر يا شيخ، فخرجت من المخيم وأنا ليس معي شيء من المال واستحييت أن أطلب منه، فخرجت داعيًا: يا ربي تعلم مكانة الشيخ عندي وتعلم ما يريده لأجل التفرغ لعبادتك وذكرك، اللَّهُمَّ يسر هذا الأمر، فخرجت من المخيم ومشيت عشرات الأمتار ليس بعيدًا فإذا بي أتفاجأ بشيء؛ أرى خيمة لرجل طيب مثل المحل التجاري فيها براميل الماء التي يسخن فيها الماء للشاي والقهوة إضافة إلى الحليب والبسكويتات المختلفة مع مياه باردة، وهو يقول: (شاهي قهوة، شاهي قهوة).

فلما دنوت منه فإذا بكل شيء من الأصناف العالية الفاخرة؛ فتعجبت، وطلبت كوبين من القهوة بلا حليب ولا سكر فقال: أبشر.

فلما أقبلت على الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ كاد يطير فرحًا لوجود القهوة، فشرب ونشط في العبادة، ولم يصبه النعاس ذلك اليوم، وظل جالسًا مستقبل القبلة ذاكرًا لله تعالى، ومنذ ذلك الحين فإنه رَحِمَهُ اللَّهُ لم ينم إلا في مزدلفة أول ما وصلنا إليها اضطجع قليلًا»!.

وأخبرني أبناؤه وبعض أقاربه وغيرهم أنه ـ رحمه الله تعالى ـ لم يترك الحج منذ أن قدم مكة، إلا في السنتين الأخيرتين من وفاته، فأما السنة الأولى فبسبب اشتداد المرض، وأما السنة الثانية فبسبب جائحة كورونا.

أخلاقه وتواضعه وزهده

تحلَّى رَحِمَهُ اللَّهُ بصفات جليلة وأخلاق حميدة، وجمع بين العلم والعمل، ولهذا أحبَّه طلاب العلم محبة عظيمة، وأكنوا له تقديرًا كبيرًا، ورزقه الله القبول لديهم؛ فأقبلوا على دروسه وكتبه ينهلون من علمه ويستفيدون من شروحاته في فنون العلم، ويقتبسون من سمته ودلِّه رَحِمَهُ اللَّهُ.

كان رَحِمَهُ اللَّهُ يناقش طلابه ويتقبل أسئلتهم، ويُلقي الدروس بهمَّة عالية ونفسٍ مطمئنة واثقة، مبتهجًا بنشر العلم وبثِّه وتقريبه إلى الطالبين والراغبين.

وله مع زملائه وطلابه مواقف وأحداث تدلُّ على سمو خلقه وتواضعه، وكان لا يخاطب أحدًا بكلمة جارحة قد تكسر خاطره؛ بل كان يُعامل الجميع برأفة ورفق[1].

وكان لا يلتفت إلى ما لا يعنيه، ولم يكن متسلطًا أو ناقدًا؛ بل كان موجهًا بأفعاله الحسنة مع من يعرف ومن لا يعرف.

أخبرني أخونا الشيخ إبراهيم محمد القصاري أنه سمعه مرة يدعو بقوله: «اللَّهُمَّ اجعل خصمي بصيرًا بالحق».

يقول صاحبنا الشيخ منصور بن سعيد بن رشيد النعماني: «كنت أقف عند جسر المنصور على شارع أم القرى المتجه للمسجد الحرام لكي أستقل سيارة بأجرة توصلني للحرم، ثم أذهب إلى درس شيخنا في

(١) ذكر لي شيئًا من ذلك غير واحد من أبنائه وتلاميذه منهم: ابنه إبراهيم وتلميذه الأخ همام البيضاني وغيرهما.

دار الحديث بأجياد، لكن بعد ذلك صار الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ يلاحظني أقف فيتوقف ويأخذني معه بسيارته (الكابريس)، وكذلك في العودة يأخذني معه في أكثر الأيام، وأحيانًا أذهب مع بعض الطلاب، وكان الشيخ يسكن في تلك السنوات في حي الهنداوية، وكنت أسكن قريبًا منه، وفي الغالب يكون مع الشيخ أحد الطلاب ممن يسكن بجواره ويحضر دروسه ويرافقه في الذهاب والعودة.

وهذا يدل على سماحة نفس شيخنا وتواضعه وقربه من طلابه ونفعه لهم، ـ رحمه الله وأجزل مثوبته ـ».

ومع ما حباه الله من العلم الغزير فهو عظيم التواضع.

ذكر مرة في شرح الألفية عند قول ابن مالك ـ رحمه الله تعالى ـ:

كلامنا لفظ مفيد كاستقم واسمٌ وفعل ثم حرف الكلم

قال شيخنا العلامة ـ رحمه الله تعالى ـ: يقول ابن مالك ـ رحمه الله تعالى ـ: كلامنا أيها النحاة.

ولماذا أضافه إليه؟

أضاف إليه بـ (نا) المتكلمين إشارةً إلى أن أنه مجتهدٌ في الفن.

ثم قال شيخنا: أمّا أنا فقد قلت في أرجوزتي التي نظمت فيها المتممة: كلامهم...

لفظ مركبٌ مفيد وضْعا كلامهم كـ (العلمُ نورٌ يُرعى)

أنا لست مجتهدًا.

أمّا ابن مالك لما كان له غوص في البحر قال: كلامنا أيها النحاة؛ إذن يدعي الاجتهاد وهو أهلٌ له، أهل للفن[1].

---

(١) ذكر هذا في المجالس الأولى من شرح ابن عقيل على الألفية في جامع الأبرار.

يقول الشيخ أبو محمد مدهير جابي ـ وهو من زملاء الشيخ محمد في الدراسة ـ: «كثيرًا ما كنت أراه إذا أخطأ المدرس يحرك شفتيه مع صوت مخفوض؛ ولكنه لم يكن يردّ أو يستدرك عليه لتصحيح خطئه، وإذا انصرف المدرس أستفسر منه عن محل الخطأ فيبين لي، وهذا ليس كتمانًا للعلم؛ بل خوفًا من الشهرة، ولا يحب رَحِمَهُ اللَّهُ الدخول في مناقشات مع أحد.

وهذا دليل تواضعه وأدبه».

ومن تواضعه: أنه كان يقرأ على بعض زملائه وأقرانه كالشيخ محمد بن جبريل؛ فقد قرأ عليه بعض كتب الصرف، كما قرأ على صاحبه الشيخ محمد سراج بن صالح الرايوي سنن أبي داود كله، وصاحبه الشيخ أحمد بن محمد الإيفاتي؛ فقد قرأ عليه بعض الكتب، وغيرهم.

قال سفيان بن عيينة وغيره ـ رحمهم الله ـ: لا يكون الرجل من أهل الحديث حتى يأخذ عمن فوقه، وعمن هو دونه، وعمن هو مثله[1].

يقول تلميذه همام البيضاني:

وكان إذا جاءه سائل في المسجد الحرام مِن زوّار ومعتمرين للسؤال يُشير لهم إلى مكاتب الإفتاء في الحرم ويقول لهم متواضعًا: (هناك المفتي).

ذكر لي الشيخ محمد المالكي ـ وقد رافقه في الحج سنوات ـ أنهم في مزدلفة لما اختلفت الباصات في الطرق، وكل باص له مشرف، قال الذي عندنا: التعليمات أن ننطلق بعد منتصف الليل إلى منى، معنا عوائل وكبار في السن.

قال: «وكان معنا رجل أصرّ على أن لا يمشي إلا صباحًا، فحدث

---

(١) الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع للخطيب (٢/٢١٨).

ضجيج؛ فجئت إلى الشيخ وهو منعزل وحده وجالس يذكر الله.

فقلت: يا شيخ ما رأيك الآن اختلف الناس؟ والشيخ معه أهله لا يستطيع أن يترك الحملة ويبقى؛ فقال: نمشي معه، فقلت: يا شيخ لكن السُّنَّة؟ قال: هذا مرخص فيه، وذكر النصوص، إذا اختلفوا نأخذ بما يقول القائمون على الحملة؛ لأنهم هم المسؤولون!.

فتعجبت من هذا الفقه العظيم فقه الحكمة والترشيد فيما يعود بالنفع على الناس والتخفيف عليهم، فسبحان الله!

في هذا الموقف لم يرفع الشيخ صوته، ولم يقل: أنا الشيخ، مع أنه كان أعلم مَن في الحملة؛ بل كان في غاية التضامن والتواضع والاختفاء، منشغلًا بالذكر والدعاء! حتى إنّ عامة الناس الذين كانوا معنا في الحملة يظنونه إنسانًا عاميًّا!.

كان ـ رحمه الله تعالى ـ لا يتكلم أبدًا، وإذا ناديته بقولي: يا شيخ، يقول: لا تقل: شيخ، لا ترفع صوتك!

حقًّا هي مواقف تدل على تواضعه ـ رحمه الله تعالى ـ وسهولته وسماحته في التعامل».

❁ من تواضعه ـ رحمه الله تعالى ـ مع طلاب العلم وقاصديه:

ما ذكره لي أخونا الشيخ عبد الله عوض قال: «في عام ١٤١٩هـ تقريبًا اتصلت بالشيخ بعد صلاة الظهر وأخبرته بأن بعض العلماء من اليمن يرغبون في زيارته، فرحب بهم رَحِمَهُ اللَّهُ، بعد أن فتح لنا الباب بنفسه، فسلَّم عليه هؤلاء المشايخ وقبلوا رأسه.

ولقد رأيت الشيخ ـ في هذا اللقاء جالسًا على هيئة جلسة التشهد، وكأنه طالب عندهم بكل أدب وتواضع!.

وكان رَحِمَهُ اللَّهُ حريصًا على الاستفادة من كل صاحب فائدة وإن كان أقلَّ منه علمًا بكثير؛ فما كان من أضيافه إلا أن قالوا له: جئنا إليك لنستفيد من علمك وأدبك وعلو همتك!.

ثم بعد تناول الغداء دعوا له بالبركة في العمر والعمل حتى ينتهي من شرح سنن النسائي، ففرح الشيخ بدعائهم وأمّن عليه ـ رحمه الله تعالى ـ».

ومن تواضعه ـ رحمه الله تعالى ـ ما أخبرني به الشيخ محمد السيلاني ـ مدير شؤون الطلاب بمعهد الحرم المكي الشريف سابقًا ـ قال: «وبحكم إشرافي المباشر على سكن الطلاب ـ آنذاك ـ لاحظت أنه كان من أفضل الطلاب اجتهادًا وسلوكًا وأدبًا، ورأيته مدة ست سنوات لا يحب الظهور ولا الشهرة، وما أذكره إلا بقلة الكلام من بين زملائه في المعهد والسكن، وكنت أرى بعض الطلاب قبيل الامتحانات يلتفون حوله ويحبون استذكار المقررات والدروس معه؛ لأنه كان أعلمهم وأفهمهم، وكان دائمًا في المراتب الأولى من بين الناجحين».

وحدثني شيخنا الفقيه عبد العزيز علي العجمي، والشيخ محمد المعتز ـ وكلاهما من مدرسي الدار سابقًا ـ وغيرهما أنه كان لا يدخل في جدالات ومناقشات جانبية احترامًا لمن معه من المشايخ وكسبًا للوقت، وكأنه يرى أنها لا تشتمل على فوائد مهمة، وأن الاسترسال فيها ومعها وبها يقتطع لحظات من أعماله الرئيسة[1].

أخبرني الشيخ محمد المالكي أنه في حج عام ١٤١٣ تقريبًا كان

---

(١) إلا أنه رَحِمَهُ اللَّهُ مع انشغاله المتواصل بالعلم كان يسألنا وغيرنا من الإخوة عن أحوال المسلمين في بلادهم إن حصلت فيها أحداث أو أمور طارئة، وكنا نلحظ تأثره بها ودعاءه لهم.

معه في حملة الإمام البخاري في مجر الكبش، وكان صاحب الحملة دعا بعض المشايخ، منهم الشيخ محمد بن علي بن آدم رَحِمَهُ اللَّهُ مع آخرين من أهل العلم.

يقول أخونا الشيخ محمد المالكي: «وكنت آنذاك المسؤول عن تنظيم الدروس والكلمات، وكنت ملازمًا للشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ أخدمه إذا أراد شيئًا، وأحيانًا أقرأ عليه إذا سنحت فرصة، أو أسأله في بعض المسائل، وكان الشيخ يحب الانفراد ولا يحب الكلام إلى الناس، وكان يحب أن يخلو بنفسه، معه حقيبة جلدية صغيرة فيها بعض ما يكتب ويراجع في أوقات الفراغ، ومعه مصحفه الذي لا يتركه في غالب الأوقات.

وكان من ضمن برنامج الحملة أن يشارك الشيخ في الإلقاء إلا أنه كان يتواضع ويترك الأمر لي قائلًا: أنت تصرف، خلاص المشايخ عندكم فيهم الخير والكفاية.

كان رَحِمَهُ اللَّهُ يحاول أن يجعل وقته كله في مراجعة ما كتب على الآلة الكاتبة آنذاك في بعض مؤلفاته، أو يخلو بنفسه وينشغل بالعبادة وقراءة القرآن؛ ولكن بعد إلحاح ألقى شيئًا من الكلمات المفيدة لأهل المخيم.

هذا الموقف حقيقة ترك في نفسي شيئًا كبيرًا، وهو حفظ الوقت والإقبال على كتاب الله وعلى العلم، وموضوع الإلقاء كان لا يوليه عناية كبيرة لوجود من يسدّ عنه من المشايخ، كان موقفًا حقيقة عظيمًا وترك أثرًا كبيرًا في نفسي هذا».

سبحان الله! كل من حدثني عنه رَحِمَهُ اللَّهُ تواطأت كلمتهم على تواضعه وخفض جناحه، رغم تباعدهم في الطلب واختلاف طبقاتهم من زملاء وتلاميذ قديمًا وحديثًا!.

وكان الشيخ أول ما تعين مدرِّسًا بالدار لا يملك سيارة، ويقف بعد

الانصراف ظهرًا على حافة الطريق؛ فإن وقف له بعض الطلاب بسيارته ركب معه وحادثه كأنه صاحب له.

وكان يركب مع أخينا الشيخ أبي عامر عبد الملك سالم أحيانًا كثيرةً ـ وهو من خريجي الدار ـ؛ لأنه يسكن قريبًا من بيته في المسفلة، يقول: «كان رَحِمَهُ اللَّهُ في غاية التواضع والبساطة، يحادثنا ويسألنا عن أمور الحياة التي كانت تخفى عليه، أذكر مرة سألنا عن تعلم قيادة السيارة، فيسمع لنا ويتجاوب مع أطراف الحديث بكل أدب ويدعو لنا».

وكان يحب طلابه ويمازحهم ويضاحكهم ويستأنس بهم ويسأل عن حالهم، ويفرح بمواظبتهم على حضور الدروس، ويستثمر بعض المواقف في تربيتهم، وإذا طرأ على طالب أمر أو انقطع عن الدروس لسبب ما تأثر وحزن ويسأل عنه كثيرًا ويدعو له[1].

ومن مواقفه التربوية مع طلابه أنه لما زارنا العالم الزاهد الشيخ محمد بن صالح العثيمين في دار الحديث ـ ونحن طلاب بالقسم العالي، وقبل دخوله علينا في القاعة ـ كنا مع درس شيخنا محمد بن آدم في سنن أبي داود؛ فلقد رأيناه مستبشرًا بزيارته، وكان مما قاله لنا ما معناه: إن زيارة عالم كبير مثل الشيخ ابن عثيمين لدار الحديث ينبغي أن تشجعكم على الجد في طلب العلم، حتى تصلوا إلى ما وصل إليه هو وأمثاله، رحمهم الله أجمعين.

وعَرَف عنه طلابُه في قاعات الدراسة تَحَمُّلَه ما يحدث أحيانًا من التشويش، وكان لا يخص أحدًا بعتاب أو لوم أو تجريح؛ بل يعمم ويكتفي بقراءة قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ﴾ [الفرقان: ٢٠].

---

(١) لمسنا ذلك في أكثر من موقف، كما ذكر لي شيئًا من ذلك أخونا الشيخ علي عطية، وأخونا الشيخ محمد بن علي بن سعد ـ إمام مسجد دار الحديث بأجياد ـ.

❁ من زهده:

كان رَحِمَهُ اللَّهُ لا يبالي بالمقابل المادي الذي يعود عليه من طباعة مؤلفاته؛ بل إنه يستثمره في طباعة كتبه الأخرى دون التطلع إلى المكاسب الدنيوية من النسب ونحوها[١]

يقول أخونا الشيخ عبد الله شلبي ـ المدرس بالدار ـ: كان الشيخ عجيبًا في هذا الباب، فهو على قلة حاله لا يحرص عما ليس عنده، ولا يضيع ما عنده، أوكل إلي مرة التواصل مع بعض دور النشر التي تطبع كتبه خارج السعودية، فأرسلت إليهم النسخ الأولية من الكتب، ولما انتهوا من صفها طبعتُها، وأعطيتُها للشيخ ليراجعها المراجعة النهائية، فسألته عن اتفاقه مع تلك الدار، فقال: لا أدري، نسيت، قالوا لي ولا أتذكر، فقلت له: ألا تشترط عليهم؟ فقال: لا يهمني ذلك، إن جاء فحسن وإلا فلا.

وحدثني بعض طلابه القدامى أنه كان لا يأخذ شيئًا من قيمة كتبه، حتى ألحّ عليه بعض طلابه فوافق، وما كان يعاتب أحدًا.

وأوكل مرة أمر كتابة العقد لأحد طلابه؛ لأن صاحب دار النشر جاءه في رمضان، والشيخ لا يحب لقاءه في رمضان؛ اشتغالًا بالعبادة، فاجتهد الرجل في العقد ليرفع نسبة الشيخ في المبيعات ونجح في ذلك، فلما أبلغ الشيخ ما زاد على قوله: الحمد لله، هذا من فضل الله.

وكان من مذهبه وجوب أخذ المال إن جاء عن غير مسألة؛ إذ لم ير في الحديث صارفًا يصرفه عن الوجوب: **(فما جاءك من هذا المال وأنت غير مشرف ولا سائل فخذه)**[٢].

---

(١) أخبرني بهذا: ابنه عبد الجليل، والشيخان منير محمد إبراهيم، وإبراهيم شلبي، وغيرهم.

(٢) أخبرني بهذا الشيخ عبد الله شلبي، وبمثله أخبرني كذلك الشيخ منير محمد إبراهيم، وإبراهيم شلبي، وغيرهم. والحديث المذكور عند البخاري في صحيحه (٧١٦٣) وعند مسلم في صحيحه (١٠٤٥).

مواقف من مزاحه وملاطفته

عن أبى ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال لي النبي ﷺ: **(لا تحقرن من المعروف شيئًا ولو أن تلقى أخاك بوجه طَلِق)**[١].

ولا شك أن من خصال الأخلاق إدخال السرور على إخوانه المسلمين، وقد وردت أحاديث صحيحة في مزاح سيد الخلق حبيبنا محمد ﷺ تأليفًا وتواضعًا ومداعبة وترويحًا للنفس مع أهله وصحابته، متضمنًا معانيَ كريمة، ومقاصد سامية.

وما ذلك إلا لحاجة الفطرة الإنسانية إلى شيء من التنفيس والترويح، يخفف عنها أعباء الحياة وقسوتها وهمومها، ولا حرج في ذلك إن كان منضبطًا بهدي النبي ﷺ، ولا يترتب عليه ضرر؛ لأن النفس بطبعها يعتريها الملل؛ فلا بد من لحظات وسويعات لذلك.

وسيد الخلق ﷺ كان يداعب أهله، ويمازح أصحابه، ويضحك لضحكهم.

وسُئل ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: هل كان أصحاب النبي ﷺ يضحكون قال: (نعم، والإيمان في قلوبهم مثل الجبال)[٢].

وكان شيخنا رَحِمَهُ اللَّهُ على هذا المنوال من الاستئناس وإجمام النفس، بشوش الوجه باسم الثغر، معروفًا بملاطفة جُلَّاسه، وإدخال السُّرور

---

(١) رواه مسلم رقم (٢٦٢٦).

(٢) رواه معمر بن راشد في جامعه رقم (٢٠٦٧١).

عليهم، وكان يداعبهم بما يحسن من المفاكهة، ويفيدهم بما يجمل من المحادثة، ويمازحهم مزاحًا بلا غلو ولا جفاء، وقد أدرك ذلك زملاؤه في العمل، وطلابه في دروسه العامة والخاصة، وهذا يدل على خلق جميل وتواضع جم.

قال شيخنا محمد عبد الله الشنقيطي: «كان رَحِمَهُ اللَّهُ يحب المزاح والدعابة».

وتواضعه وبساطته ـ رحمه الله تعالى ـ مع غيره كان من أبرز صفاته، يقول الشيخ منصور بن سعيد النعماني: «وكان لا يمر به موقف أو كلام يستدعي الضحك إلا ويضحك، وكنت أتعجب من ذلك».

وهذا يدل على طيبة نفسه وانشراح صدره رَحِمَهُ اللَّهُ.

وكان بعض المدرسين إذا طلب طعامًا وقت الفسحة يقول مداعبًا: أحضروا للشيخ محمد سندوتشًا بالجبن؛ فيرد عليه الشيخ: الرسول ﷺ استعاذ من الجبن، وهو في واقع الأمر لا يشتهيه ولا يطلبه[1].

كان الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ إذا انتظر حصته وتأخر المدرس الذي قبله في الخروج من القاعة قال له مداعبًا: فمن زاد او استزاد فقد أربى!

وكنت إذا شاركته في طعام يمازحني قبل القيام من السفرة بقوله ضاحكًا: أكل طعامكم الأبرار، فأرد على المزاح بمثله: لست المقصود في الحديث يا شيخنا؛ لأني إذا عرفت نكرت، وإذا نكرت عرفت، فيضحك، وأحيانًا كان يقول: أنت مثل: أمسِ!.

ذكر لي الشيخ عبد الله شلبي أنه رَحِمَهُ اللَّهُ كان ينزعج من أصوات الهواتف الجوالة في درسه، وربما عنف طلابه إذا تكرر منهم الأمر؛ إذ

---

(١) وصاحب هذا الموقف أخونا الشيخ عمر جمعة.

كان يرى أنه لا يليق في مجالس العلم، واتفق ذات مرة ورود اتصال لأحد طلابه القريبين منه، فتكلم الشيخ وأمره بإسكات الجوال، وسأله مستنكرًا: لِمَ لَمْ تُصمِت هاتفك؟ وبعدها بثوان رنّ هاتف الشيخ، فسارع إلى إغلاقه، ثم ضحك ضحكًا كثيرًا، وقال: من جرّ ذيول الناس جرّوا ذيله، قد نسيت أنا أيضًا والله المستعان!.

ويقول أحيانًا لبعض تلاميذه من المدرسين عند تسلم المرتب مبتسمًا: ﴿وَءَاتُوا۟ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ﴾ [الأنعام: ١٤١].

يقول أخونا الشيخ عبد الله شلبي: «ولما مرض شيخنا: أحمد محمد إدريس رَحِمَهُ اللَّهُ طلب مني شيخنا محمد علي آدم أن آتيه بعد العصر لنذهب لعيادته في بيته، فأخبرت الشيخ أحمد فرحب بنا، وذكر لي وصفًا لبيته كنت لا أعرفه آنذاك ـ وكان يقطن في شارع الحج ـ وحاولت التعرف على المكان، ـ وظننت أني سأصل إليه ـ فلما أخذت الشيخ محمدًا معي في سيارتي، وذهبت به اختلفت علي الطرق فعجزت عن الوصول، وكان شيخنا حريصًا على وقته، فاتصلت بالشيخ أحمد وأعطيت الهاتف لشيخنا ففهم منه، وصار يدلني على الطريق حتى وصلنا، وأبدى عجبه من عدم معرفتي بمكة وأنا مكي، فاعتذرت قائلًا: أنا في شارع الحج كالحجاج لا أعرف منه سوى طريق واحد، فضحك الشيخ، وهوّن الأمر وأخذ يشرح لي بعض المناطق والطرق المحيطة بالمكان حتى أعرفها، وعند رجوعنا دعاني إلى منزله، فاعتذرت منه وسألني ضاحكًا قبل أن أغادره: أتعرف طريق الرجوع إلى بيتك؟!»[1].

وذكر لي الشيخ عبد السلام بن محمد سعيد ـ المدرس بالدار سابقًا ـ أن الشيخ محمدًا رَحِمَهُ اللَّهُ كان إذا قابله أو رأى فيه أثر النعمة

(١) أرسل لي هذا الموقف صاحبه أخونا الشيخ عبد الله شلبي.

مازحه بقوله ضاحكًا: أنت لست بمسكين؛ بل أنت سكين!

وربما إذا قابل ـ رحمه الله تعالى ـ بعض إخوته من مدرسي الدار وطلابها يردد أبياتًا طريفة ـ بكل عفوية ودعابة ـ لا تخلو من فائدة وانبساط وسعة خلق.

من ذلك ما أخبرني به شيخنا علي بن حسن الشرفي أنهما كانا إذا تقابلا يرددان معًا بيتين من شواهد باب التوكيد فيتضاحكان، وهما:

يا ليتني كنت صبيا مُرْضَعا ... تحملني الذَّلفاء حولا أكتعا
إذا بكيتُ قبَّلتْني أربعا ... إذًا ظللتُ الدهر أبكي أجمعا[1]

وحكى لي ابنه عبد الجليل نحو ذلك، وأنه كان يتكرر منهما في عدة مواقف.

وسمعته مرة يقول لطالب نطق كلمة (الخزانة) بفتح الخاء: لا تفتح الخزانة ولا تكسر القصعة[2].

قال ابنه إبراهيم: «أذكر قبل مدة أخذنا الوالد ـ رحمه الله تعالى ـ وذهبنا به إلى جدة لمراجعة بعض المستشفيات وكان الوقت صباحًا،

---

(١) البيتان من بحر الرجز، ولا يُعرف لهما قائل، وفي البيتين ثلاثة شواهد:
الأول: في قوله: (حولا أكتعا)، وفيه جواز توكيد النكرة إن كانت محدودة؛ كيوم وشهر وعام وحول، ومنه قول عائشة ﵂، فيما رواه مسلم ٢/ ٨١٠ (١٧٣): ما علمت رسول الله ﷺ صام شهرًا كله إلا رمضان.
والثاني: قوله: (الدهر أبكي أجمعا)؛ حيث فصل فيه بين التوكيد والمؤكد بأجنبي. ومنه قوله تعالى: (ولا يحزن ويرضين بما آتيتهن كلهن).
والثالث: في قوله: (الدهر أجمعا)؛ حيث أكد الدهر بأجمع من غير أن يؤكده أولًا بكل، ومنه قوله تعالى: ﴿لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾﴾ [ص: ٨٢].
[الهمع/ ٢/ ١٢٣، والأشموني/ ٣/ ٧٦، وشرح أبيات المغني/ ٧/ ٢٨٥].

(٢) تروى هذه الفائدة عن المفتي أبي السعود الحنفي ﵀ أنه سئل عن الخزانة والقصعة أيقرآن بالفتح أو بالكسر فأجاب بقوله: لا تفتح الخِزانة ولا تكسر القَصعة. اهـ من حاشية ابن عابدين الحنفي (١/ ١٢).

فطلب الإفطار، فأتينا له به وأفطرنا معه سويًّا ونحن على الطريق.

وبعد الإفطار طلب عود الأسنان فاستخدمه، ثم قال: من لزم الخشبتين أمن السكّتين وكنا نجهل المعنى، وقبل أن نسأله بادر رَحِمَهُ اللَّهُ بالقول فقال: المقصود بالخشبتين هذه الخشبة، والأخرى المسواك، يقصد أن من أخرج بقايا الطعام العالق بين الأسنان ثم نظفها بالمسواك أمن بمعنى لم يحتج أن يذهب إلى طبيب الأسنان وهو الذي يستخدم السكّتين ـ وهي أداة من حديد مثل المفك تقلعها، وتسمى بالعامّية ـ الكمّاشة، أو الزرّادية والجرّادية ـ لإخراجها من جذورها.

فلما فهمنا ضحكنا جميعًا من أسلوبه في صياغة الجُمَل وتقريبها للفهم رَحِمَهُ اللَّهُ».

تعامله مع زملائه وطلابه

* ومن تعامل معه في أمر أو مهمة رأى انضباطه في المواعيد، يقول الشيخ منير محمد إبراهيم وجاسم محمد مبارك وغيرهما: ما خرجنا لمهمة عمل أو مراجعة إلا ونراه يسبقنا في الانتظار عند باب منزله حتى وإن كان الوقت قبيل الفجر الساعة الثانية أو الثالثة ونحوها.

ومعروف عند الإخوة المدرسين الذين معه في المكتب حرصه على حضور أي حصة أو اجتماع في أول الوقت.

حدثني الشيخ عمر جمعة والشيخ إبراهيم محمد القصاري وغيرهما أن الشيخ عادة إذا قال ـ من القيلولة ـ مدة دقائق في بعض حصص الفراغ بسبب الإرهاق وقلة نومه ـ كما سبق ـ؛ يثب قائمًا قبيل الحصة المقبلة من غير أن ينبهه أحد؛ فيتوضأ ثم يصلي، ويكون أول المنطلقين لها!.

يقول الشيخ منير: «كنا نراه أسبوعيًّا يتهيأ لاجتماع المجلس الإداري قبل انعقاده بوقت، وأحيانًا يسأل ويتابع هل حان الوقت؟ هل حضر المدير؟».

والتزامه رَحِمَهُ اللَّهُ بالمواعيد وإيفاؤه بها مع المدرسين والطلاب في الأمور المتعلقة بإحضار الكتب والمذكرات والإجازات والتزكيات وإجراءات الامتحانات أمر معلوم.

من ذلك لما أبلغه أخونا الشيخ محمود حسن ـ المدرس بالدار ـ

أن كتابه (مشارق الأنوار الوهاجة) لا توجد منه نسخة في مكتبة الدار استغرب، ثم أحضره في صباح اليوم التالي، ومر على الشيخ محمود وقال له: وضعت نسخة من الكتاب في المكتبة.

وذكر لي الشيخ سراج مطر ـ الإداري بشؤون الموظفين سابقًا ـ أنه كان منضبطًا جدًّا في مواعيده، ولم يعرف عنه أنه تأخر في معاملة تتعلق بالوثائق وإجراءات المستندات المختلفة؛ بل كان يتابع بنفسه، أو يرسل بعض أبنائه في حال انشغاله رَحِمَهُ اللَّهُ.

وهذا يدلّ على اهتمامه رَحِمَهُ اللَّهُ وانضباطه بالمواعيد ونحوها.

وكان يتابع باهتمام مَن معه مِن أعضاء اللجان المختلفة التي كان يترأسها في الدار لتسليم الأعمال وأدائها في أول وقتها.

وأقرب عهدنا به في هذا الجانب عملنا معه في لجنة المناهج والمقررات بالدار؛ فكان رَحِمَهُ اللَّهُ يتواصل معنا بوقت كاف ويذكرنا بالاجتماع وإحضار المهام التي كلفنا بها.

* وكان رَحِمَهُ اللَّهُ يغرس في طلابه احترام الكتب وإجلالها، ويعتني في هذا الجانب بأمور قد لا يُلقي لها الناس اهتمامًا.

ذكر تلميذه أخونا همام البيضاني أن الشيخ كان يرشده إلى الطريقة الصحيحة في التعامل مع الكتب؛ كالإمساك بالطرف الأسفل من صفحاتها عند تقليبها، وأن ذلك يكون برفق ولين، وكان يكره طيّ زوايا الصفحات لجعلها علامةً على موضع المسألة ونحوها.

ويردّد على مسمعه: «مَن يحترم الكتاب يُوفَّق في الاستفادة منه».

حاله مع الامتحانات

ذكر لي غير واحد من المشايخ الذين عملوا معه في لجان الامتحانات أن الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ كان معروفًا بالتيسير والرفق على الطلاب بوضع الأسئلة في المسائل الواضحة وعدم التطرق للجوانب التي يتعسر استحضارها لدى معظم الطلاب بصياغة واضحة من دون تعقيد لفظي أو معنوي، مع استيفائه لها أثناء الدراسة.

قال شيخنا محمد الشنقيطي: «كانت أسئلته معتدلة وسهلة على الطلاب».

وكان يتسامح في منح الدرجة إن بدا له وجه صواب في جواب الطالب؛ بل إننا سمعناه غير مرة أيام الامتحانات وتصحيح إجابات الطلاب يقول ما معناه: «إن شممتُ رائحة الإجابة منحته الدرجة!».

يقول شيخنا الفقيه عبد العزيز علي العجمي: «عملت معه في لجان الامتحانات فلاحظته في تصحيح أوراق الإجابات متسامحًا كريمًا في منح الدرجة».

يستغرب الشيخ عبد العزيز عندما قال لي: «أسئلته خفيفة وسهلة جدًّا في الامتحانات، وهو شارح الكتب الكبار والغائص في مسائل العلم العظيمة!».

وحول أمر الامتحانات يذكر الشيخ مدهير جابي أنه رَحِمَهُ اللَّهُ عندما كان طالبًا لم يكن حريصًا على حصول المراكز الأولى في الامتحانات

كمعظم الطلاب الذين يولونها اهتمامًا في العادة، ولا ينافس الطلاب في الدرجات، ولم يكن اهتمامه بالمقررات الدراسية مثل أكثرنا للنجاح والتفوق في الاختبار فقط؛ بل كانت همته أعلى؛ فقد كان جلّ وقته يبحث ويحفظ ويؤلف وهو طالب معنا في المعهد وفي الدار[١].

(١) وقد شرع في شرح ألفية السيوطي وغيره عندما كان طالبًا بمعهد الحرم، وذكر ذلك رَحِمَهُ اللَّهُ في بعض دروسه.

مواقف من حزنه ومواساته لمن حوله

* كان رَحِمَهُ اللَّهُ معروفًا بالمبادرة في عيادة المريض وتعزية المصاب ومواساته، وكثيرًا ما كان يحضّنا عليها، ويبين أنها من حقوق الأخوَّة في الله لما فيها من المواساة وجبر الخواطر والتواصي بالحقِّ، والتواصي بالصبر.

لما بلغه نبأ وفاة شيخنا الفقيه أحمد حسين ـ رحمة الله عليه، المدرس بالدار سابقًا ـ تأثر جدًّا، وقال لتلميذه جاسم محمد مبارك: تواصل مع أحد الموجودين في المغسلة من مشايخ الدار؛ فإذا أخبرك بأنهم انتهوا من الغسيل نذهب للمغسلة حتى نودع الشيخ أحمد؛ فأسرع إليه وأقبل يقبل وجهه ويدعو له، قال لي مرافقه: رأيته متأثرًا جدًّا ومستمرًّا في الدعاء ونحن في طريقنا إلى الحرم للصلاة عليه ـ رحمهما الله ـ.

وفي جنازة الشيخ أحمد عجاج رَحِمَهُ اللَّهُ كان يذكر الله ويلهج بالدعاء وعيناه تذرفان، وكذلك كان في جنازة الشيخ محمد الأمين الهرري[١].

وهذا الأدب الذي كان عليه السلف الصالح، قال ثابت البناني: «لقد كنا نتبع الجنازة فما نرى حول السرير إلا متقنعًا باكيًا، أو متفكرًا كأنما على رؤسهم الطير».

ويقول الأعمش: «إن كنا لنحضر الجنازة فلا ندري من نعزي من وجد القوم»[٢].

---

(١) أخبرني بهذا من رأى من الإخوة الزملاء كالشيخ حبيب صبور وغيره.
(٢) أخرجهما ابن أبي شيبة في مصنفه (٧/ ٢٤١).

ولما توفي والد أخينا الشيخ عمر جمعة ذهب إليهم ـ وهو على عربته مدفوعًا في فترة مرضه ـ فعزاهم ودعا لهم.

بل إذا بلغه خبر عن مرض أحد الإخوة أو نبأ وفاة يبادر بالاتصال، أو يطلب ممن حوله أن يتصلوا للاستعلام والتأكد، ثم يكون هو أسبقهم في المواساة.

حاله مع أهله وأولاده

عنايته رَحِمَهُ اللَّهُ بأولاده وتربيتهم على المنهج الصحيح قد ظهر أثره فيهم؛ فأبناؤه وبناته كلهم يحفظون القرآن الكريم إلا أصغرهم فهو في طريقه للإتمام، كما أنهم درسوا في المعاهد الشرعية، وبعض بناته يدرّسنَ العلوم الشرعية في بعض المراكز.

وكان رَحِمَهُ اللَّهُ يتابعهم بنفسه ويسألهم ويتابع معهم بالمعاهدة والاختبار، ويتواصل مع محفظهم في المسجد أحيانًا لمعرفة مقدار ما حفظوا.

وكان يكلفهم بالمراجعة والمدارسة لشغل وقتهم بما ينفعهم، وذلك خشية خروجهم واختلاطهم بمن لا تنفع صحبتهم كما أخبرني بذلك أبناؤه.

وفي سفره معهم كان يعلمهم بعض الآداب، ويشاركهم في قراءة بعض المتون تشجيعًا لهم، وربما مازحهم تخفيفًا عليهم وطردًا للملل.

وكان يحثهم دائمًا على أداء الصلاة في وقتها، وأحيانًا يرفع صوته (الصلاة الصلاة) مناديًا لهم بأسمائهم.

وكان ينصحهم بإتمام الأعمال وعدم تأجيلها قبل دخول وقت الصلاة ـ ما لم يتعارض ذلك مع وقتها ـ حتى تفرغ أذهانهم وتخشع قلوبهم.

يقول ابنه عبد الجليل:

«إذا قال قائل: اترك العمل لما بعد الصلاة كان يرد عليه قائلًا: بل أنهه قبلها حتى تدخل لها وأنت خاشع».

يقول ابنه عبد الجليل: «كان الوالد يتعاهدنا في شهر رمضان المبارك في أداء العبادات بأنواعها، وكان يحثّ أهل بيته على أداء العمرة فيه».

وفـاتــه رَحِمَهُ اللَّهُ

انتقل إلى رحمة الله البارئ يوم الخميس الحادي والعشرين قبيل صلاة الظهر من شهر صفر عام ١٤٤٢هـ.

وقد حُملت الجنازة على الرؤوس والأيدي، وتدافع الناس على حملها إلى مقبرة شهداء الحرم بحي الشرائع بمكة المكرمة، وامتلأت ساحة المقبرة وما حولها بالناس مع وجود جائحة كورونا وتوقع الناس عدم الازدحام احترازًا.

وكان المشيعون من العلماء وطلبة العلم وعموم الناس قدموا من أرجاء مكة وخارجها، وكانت جنازة مهيبة، وصُلِّي عليه في مغسلة جامع المهاجرين، وفي الحرم، وفي المقبرة.

وقد رأينا الناس يعزي بعضهم بعضًا، ورفعوا أكفّهم داعين الله تعالى أن يرحمه ويثبّته ويجزيه عما قدّم للإسلام والمسلمين خيرًا وأجرًا.

* اللَّهُمَّ ارحم عبدك محمدًا، واغفر له، وعافه واعف عنه، وأكرم نزله ووسع مدخله، وارفع درجته عندك في العليين، واجزه عن الإسلام والمسلمين خيرًا.

ولا نقول بعد هذا إلا ما يرضي ربنا: إنا لله وإنا إليه راجعون، اللَّهُمَّ آجرنا في مصيبتنا واخلف لنا خيرًا منها، وإنا لفراقه لمحزونون.

اللّهم إن عبدك محمد بن علي بن آدم خدم كتابك وسُنَّة نبيّك ﷺ في بلدك الحرام، اللَّهُمَّ فارحمه برحمتك، وجد عليه بكرمك، وأسكنه في جنتك مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقًا.

الخاتمة

من الكلمات التي نتذكّرها وكان لها أثر في النفس مقولة شيخنا علي بن عامر الأسدي ـ مدير الدار سابقًا، رَحِمَهُ اللَّهُ ـ للطلاب: «الزموا الشيخ محمد بن علي آدم؛ فإن رحل عن هذه الدنيا؛ فسوف تندمون كما ندمنا بعد رحيل الشيخ محمد الأمين الشنقيطي. رحمهم الله أجمعين».

* وما يخفف عنا الألم والأسى ويسلينا أن جل علومه وتحقيقاته محفوظة في كتبه النافعة ومصنفاته الماتعة، وله دروس صوتية مسجلة، نسأل الله تعالى أن ينفعنا بها وبما فيها من اللطائف والفوائد، والترجيحات والفرائد.

ولم يبق أمام طلاب العلم إلا الارتشاف من إرثه وعلمه الذي ورثه للأجيال في مؤلفاته، فما أجمل أن يدخروا علمًا يُنتفع به!.

وكلنا عن هذه الدنيا راحلون، ولا ينفع الإنسانَ إلا الإيمانُ والعملُ الصالحُ على منهج رسول الله ﷺ وصحبه الكرام ومن تبعهم بإحسان.

* وختامًا ليعذرني قارئ هذه الصفحات إن رأى زلة أو قصورًا، أو أخرت ما حقه التقديم سطورًا، أو استطردت بذكر موقف كان مغمورًا، والله تعالى أعلم بالصواب، وإليه المرجع والمآب، وهو حسبنا ونعم الوكيل، إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت، وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب.

اللّهم صلِّ وسلِّم على نبيِّنا وقدوتنا محمد الأمين، وعلى آله وصحبه أجمعين.

سبحانك اللَّهُمَّ وبحمدك نشهد أن لا إلٰه إلا أنت
نستغفرك ونتوب إليك

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة
* تقديم	٥
* المقدمة	١٠
ـ بطاقة المعلومات الشخصية	١٣
ـ ترجمة الفقيد بقلمه	١٥
ـ جهوده في التعليم والتدريس	٢٤
ـ حرصه على الوقت	٤٢
ـ كتبه ومؤلفاته	٤٤
ـ محفوظاته وطريقة معاهدته لها	٥٦
ـ مواقف من همته وجَلَده رَحِمَهُ اللَّهُ	٦٣
ـ اتباعه للدليل ورجوعه للحق وتحرّيه الدقة في المسائل	٨٢
ـ مواقف من فرحه وهمّه	٩٢
ـ حاله مع العبادة	٩٥
ـ أخلاقه وتواضعه وزهده	١٠٤
ـ مواقف من مزاحه وملاطفته	١١٢
ـ تعامله مع زملائه وطلابه	١١٧
ـ حاله مع الامتحانات	١١٩
ـ مواقف من حزنه ومواساته لمن حوله	١٢١
ـ حاله مع أهله وأولاده	١٢٣
ـ وفاته رَحِمَهُ اللَّهُ	١٢٥
ـ الخاتمة	١٢٦
* فهرس الموضوعات	١٢٨

دار ابن الجوزي 8428146
9 786038 338421